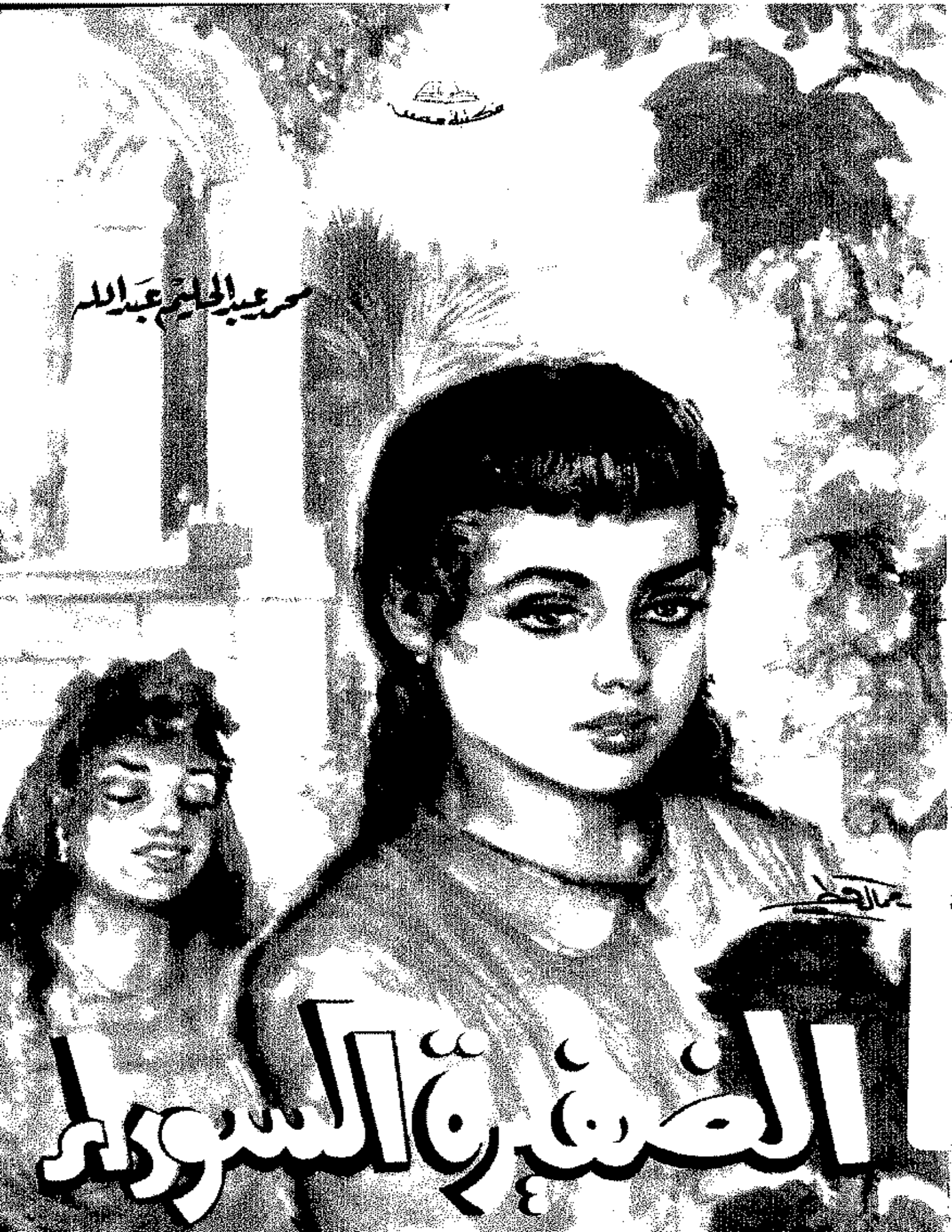




محمّد الحليم عبد الله



ملاح

الضفيرة السوداء

الصفحة السوراء

مطبعة خان بكشيه رهن

النفيرة السوراء

تأليف

محمد عبد الحكيم علي

النشر

مكتبة مصير

٣ شارع كامل صدق - الجمال

سَمْعُهُ عَلَى الطَّرِيقِ

رأيت سؤالاً حائراً على وجهك قبل أن نفترق — يا سيدتى — فلم أشأ أن أجيب عنه . فتركت لك الفرصة لكى تهمينى بالرقعة التى تبلغ حد عدم الاحتمال . وكان السؤال الحائر على ملامحك ليلتذيقول لى : « لماذا كل هذا الحزن على وجهك العجوز بعد أن عاش عمره وقضى وطره وأدى رسالته . ورأى حفيده — الذى هو أنا — فى الخامسة والعشرين من عمره ؟ » .

وكان من الممكن قبل أن أعود إلى مقر عملى فى الإسكندرية وأتركك فى القاهرة أن أقول لك مشافهة كل هذا الذى أخطه إليك الآن ، لكن كثيراً من الناس — وأنا من هذا الكثير — يجيدون شرح مشكلاتهم لمن يطلبون منهم حلها إذا لم يكونوا أمامهم وجها لوجه . لأن البديهة لا تسعفى ، والمسألة لا تخصنى وحدى بل تخصنى أنا وأنت ما دمتنا قد وضعنا أقدامنا على رأس الطريق الذى سيقودنا حتا إلى الحياة الزوجية المشتركة .

لقد عشت مع جدى من عشر سنوات فى مسكن صغير فى ضاحية هادئة ، ولا أذكر الليلة الأولى التى دخلت فيها إلى مسكن جدى . وأنا فى حوالى الرابعة عشرة من عمري يتبعنى رجل يحمل حقيبة كبيرة فيها ملابسى وأدواتى . وكنا فى أواخر الصيف والوقت عصر وجدى مستلق على كرسي طويل من القماش فى حديقة ضيقة المساحة على هيئة شريط تقع أمام سلم السلامك . وابتسم لى ابتسامة عريضة ملأت خده بالتجاعيد ، وجذبني إليه فأجسست ارتعاشة يده وسرعة أنفاسه التى لامست وجهى ، وقال لى بعد ذلك : « ها أنت ذا يا بنى عدت إلى والد الكل ... أنا أصل الشجرة وظلى



كان يقص على من ذكريات شبابه
أشياء أشبه بما أقرأ في كتب التاريخ

يا بنى — حتى على ضعفى — أغزر من ظل الجميع . ثم نادى على خادمة كبيرة كانت تقوم بشئون البيت ، وأمرها أن تدخلنى الغرفة التى هياها لى لأرى ماذا أعده لى والذى الأكبر . لكننى على الرغم من كل ما رأيت من أسباب الراحة ظللت أبكى فى حجرى طول الليل ، وأشعل النور وأطفئه ، ونحوم فراشة ضالة حول المصباح المعلق كلما أوقدته ، فأنظر إلى حيرتها وأنا دافع العين ، وسعال جدى يتناهى إلى سمعى من الحجرة الأخرى .

ولم أكن مقدرًا أن هذا الرجل سيقوم على أسر قلبى وربط حياتى بحياته على هذه الطريقة .. ففى أصيل اليوم الثانى لبس حلته وتناول عصاه وأمسك بيدي وقال بلهجة مرحة حنون :

— تعال مع جدك يا بنى لكى يلين أعصاب رجليه فى نزهة قصيرة ..

وخرجنا معا ، فأخذ يقص على من ذكريات شبابه — ونحن سائران — أشياء أشبه بما أقرؤه فى كتب التاريخ . وشيئا فشيئا تطرق بنا الحديث إلى سبب ضمى إليه ، فترأت من كل التهم التى قصها على وإن كان معظمها صحيح ، والتى بلغت بطبيعة الحال على لسان أبى الذى كان قد تزوج امرأة غير أمى منذ زمن ، وأنجب منها إخوة لى حاولت أن أحبهم بكل ما أستطيع .

ولست أريد يا صديقى أن أحدثك عن تفاصيل حياتى فى بيت أبى حتى بلوغى الرابعة عشرة ، لأن مثل هذا اللون من الحياة يكاد يكون عند كل القلوب واضح المعالم وإن غطى بشيء من الضباب ، فالذى لا شك فيه أن أبى كان يحب لى ، وأن حبه لى كان ينتج رحمة أو قسوة حسب الظروف والأحوال التى تظلل بيتنا هذه حاله . لست أريد أن أحدثك عن تفاصيل حياتى هنالك ، ولكنى أريد أن أحدثك عن تفاصيل حياة أخرى ... حياة أبى مع أمى قبل أن يفرقا ... أيام كانا فى بيت مع ابنيهما الوحيد . فلما نشب

الخلاف بينهما لم يذكر في لحظات الغضب أنهما يعيثان بالسلاح ببلادة كثيرا ما تتسبب في قتل الأبرياء . وكان أساس النزاع بينهما ميراث ضئيل عند أبيهما اللذين كانا على قيد الحياة . ثم تفاقم الخلاف بالحركة كما تتكاثر رغبة الصابون ، وتعاون أهل أمي مع أمي في إشعال النار ، وركب أبي رأسه ، وتبدلت الاتهامات حتى افترق الزوجان وخرجت أمي من البيت .

وكنت أراها أيام كنت معها في بيت أهلها تبكي كلما انفردت بنفسها ، وكانت تصعد في الشتاء إلى سطوح البيت بحجة أنها تتمتع بالشمس ، ثم تنزوي في أحد الأركان وتذرف الدموع في صمت ، فألوذ بها وأقبلها فلتقط شفتاي دمعها المالح . حتى إذا ما شاءت الظروف وسمعت أمي وقع أقدام جدتي قامت إلى السور ونظرت إلى الحارة لتواري وجهها عن أمها .

بعد مرور عامين — يا سيدتي — بلغت سبع سنوات من العمر ، وفي ليلة شتائية باردة كثيرة الأوحال . وبيننا نحن على العشاء في صالة الشقة ، رأيت أمي تتلفت نحو والدها في خوف بعدما دخل من الباب وشرار الغضب يتطاير من عينيه ، وكان يخلع حذاءه الذي لوته المطر عند باب الشقة قبل أن يدلف إلى الداخل . وسمعته يقول موجه الكلام إلى أمي بحدة شديدة رفع معها صوته :
— لقد انتهى الأمر يا سيدتي ... نعم انتهى الأمر ... ماذا كنت تتظنين منه إلا هذا ... إنني أعرف الناس بخصال أمثاله ... لقد تزوج ليلة البارحة وانتهى الأمر .

وكفت أمي عن الأكل وعضت شفتها ولم تستطع أن تقوم عن المائدة وأخذت أسأل نفسي في سري : « وهل زواج الناس يحزن الناس ؟ بالعكس ، إن الناس يفرحون » . وذلك لأنني لم أكن قد تبينت بعد أنهم يتحدثون عن زواج أبي بامرأة أخرى بعد أن فارقت أمي . ولما دخلنا إلى فراشنا

تعمدت أُمى أن تجعل الحجرة أحلك ظلاما من كل ليلة ، لكن مهمة بكائها ظلت تصل إلى سمى طول الليل حتى أرقّت ، وسهرت أسأل نفسى ولا أستطيع أن أسأل أحدا : « إذا كان هذا الذى حدث بينهما شيئا يستوجب البكاء ، فلماذا إذن فعلوه ١٩ » .

وفى الأشهر التالية لهذا الحادث كنت أسمع جدق تكثر الكلام حول الشباب وطول العمر وضرورة التصرف بحكمة . وتبدت الحكمة جلية فى إحدى ليالى الشتاء التالى حين رأيت أُمى تخرج من بيت أبيها بشكل أثار حزنى وأنا صغير ، وبث الرعب فى قلبى كأننى وضعت فى صحراء . ولم يقل لى أحد شيئا ولم أستفسر عن الأمر . لكن أُمى قبلتنى وهى بخارجة والدمع فى عينيها ، ورائحة عطر نفاذ تفوح من ملابسها . ولم أتحرك من مكانى ولم أرد عليها تحية الوداع لأننى كنت مخنوقا . وبعدها خيم السكون على البيت وأحسست حقا أنها ليست فيه . وتذكرت دموعها ودموع أمها وأنا فى نفس المكان الذى كنت فيه فى الشتاء الماضى — عدت أسأل نفسى السؤال القديم دون أن أطلب من أحد جوابا : « إذا كان هذا الذى حدث شيئا يستوجب البكاء فلماذا إذن فعلوه ١٩ » .

ثم ضمنى أبى بعد ذلك بستتين ، ولن أعود يا سيدتى فأصف لك الحياة فى بيت أبى ، لأن مثل هذا اللون — كما قلت لك — يغنى إجماله عن تفصيله ؛ لكننى سأكتفى بوصف حادث واحد وقع لنا بعد عام :

كان ذلك يوم عيد ... حين اصططحبنا أبى جميعا إلى إحدى الحدائق العامة ، وفرشت أسرتنا سجادة على الحشيش وضعت عليها متاعها وطعامها وشرابها ، وما كدنا نستقر فى موضعنا ونفحص الناس من حولنا حتى تبينت أن الأسرة الصغيرة الجالسة على مقربة منا تضم بين أفرادها أُمى ، فلتفت فى

حذر إلى وجه أبى لأرى هل تبدو عليه علامات المشهد الذى أراه ؟ ولما التقى نظرنا رأيت قلعا قاسيا يطفو فى عينيه ، وفهم من نظرتى ماذا أريد أن أقول له فأعرض عنى قليلا وتهد ثم حول عنقه نحوى وتهد ، ثم نظر إلى أغصان الشجر وتهد ، ثم أمسك بذراعى فجأة وضغط على عضدى وهو يقول : قم فسلم عليها .

وطرت أتدحرج كأننى كرة دخلت إلى هدفها من ضربة واحدة ، فاستقبلتنى بين أحضانها ، ورأيت الدمع القديم الذى طالما بلل خديها فى بيت أبويها ينبثق من عينها ، فالتقطته — شفتاى مرة أخرى . ثم أشارت إلى طفلين صغيرين بجوارها تحتضن أحدهما امرأة عجوز وقالت : هؤلاء إخوتك ، وكان إلى جوارهما رجل رأيت فى عينيه نظرات قلقة ، مثل التى تركتها فى عينى أبى على بعد عشرة أمتار .

وانقضى يوم العيد على كل حال ، فلما أويت إلى فراشى فى بيت أبى واسترجعت المنظر الذى رأيته فى الصباح ، عدت فسألت نفسى السؤال الخالد محورا بعض الشئ : « إذا كان هذا الذى حدث شيئا يستوجب الندم فلماذا إذن فعلوه ١٩ » .



ولم تستقرى الحياة ولم تنأ إلا فى البيت الثالث ، فى مسكن جدى ، فى الشقة الوادعة فى الضاحية . هناك لقيت منه حنان أبى وأمى ، وكان يعتذر لى عن كل ما حدث من أبوى كأنه هو الذى فعله . يعتذر فى ندم وخجل وهو يمصمص بشفتيه ويقول لى : إنه الشيطان يا بنى ... لو قذفه أحدهما بحصاة ليلتد ما افترقا قط .. لكنه نصيب .

وفى صباح كل يوم كنت أشرب معه الحليب ، وعصر معظم الأيام أخرج

معه إلى التزهة ، أما الأمسيات فكانت مليئة بالأسمار والذكريات حتى امتزجت روحى بروحه فأنساني كل ما مضى .

وها هو ذا قد مات يا صديقتى . لم يزعج أحدا حتى في طريقة موته ، فقد دخلنا عليه حجراته في الصباح فرأيناه وقد قدر له مواصلة النوم مع أننى سمعت سعاله قبل الفجر . فهل عرفت لماذا أنا عليه جد حزين ؟ . لقد كان يتمنى أن يرانى متزوجا ، وكنت أسخر بينى وبين نفسى من أمنياته لا لشيء إلا لأننى أخاف من الأشباح . ألا تعلمين أن الأشباح لا وجود لها ، ولكننا نشعر بها وهما ونخاف منها كأنها حقيقة ؟؟ فهل أنت قادرة يا سيدتى على أن تطمسي الماضى فى نفسى ؟ . وهل تملكين من ضبط النفس ما يجعلك لا تقدمين فى حياتنا الزوجية على ما يسبب البكاء إذا خلونا بنفسنا والمكابرة إذا كنا بين الناس ؟؟ وهل أنت واثقة من قدرتك على منع يدك من العبث بالأسلحة الخطرة التى تختار ضحاياها من أطفالنا الأبرياء ؟؟

إن قلبى يحس أنك قادرة على كل هذا . إنك ذات ملامح طيبة متسامحة ، وقد قلت لى ذات مساء : « إنك تعطفين على ضعف الإنسان ، وتودين أن تمسحى التراب عن ثوب كل من يكبو على الأرض » .

إننى سأنتظر رسالة منك . فإذا كانت « لا » فلتكن نفس رسالتى راجعة فى غلاف جديد من عندك ، وإن كانت « نعم » فستكون بخط يدك ... وأظن أنك ستقولينها ، فأوقدى لى شمعة على الطريق .

الليلة الموعودة

تنفست الست بجهة بارتياح ، بعد أن عادت من بيت بنتها العروس ، ثانية ، بناتها وأخراهن ، وابتسمت في رضا ينم عن أن كل شئ على ما يرام .
ولم تكن الست بجهة تعلم أن الراحة التي يشعر بها الناس بعد إلقاء الأحمال الثقيلة عن أكتافهم — لا تلبث أن تتحول إلى فتور ثم ملل . ومن أبواب الملل تدخل على الناس مخاطر لا حصر لها . سواء أكانوا في دور الشباب أم جاوزوا الخمسين من العمر كما هو حال الست بجهة .

وفي مساء هذا اليوم نفسه أشعلت الست بجهة معظم مصابيح النور في شقتها ذات الحجرات الأربع ... كانت وحيدة في هذه الليلة وكانت تريد أن ترى الأشياء واضحة حولها ، فقد بدت قطع الأثاث التي تقع في الظلمة الخفيفة أو في النور الواهن وكأنها تهمس إليها بذكريات تعذب الروح .. عن زوجها الراحل . مأمور أحد السجون في العهود القديمة أيام كانت القسوة هناك مطبوعة على كل شئ .

وكان تخاف كأنها امرأة في سجن النساء ، وتسأل نفسها دون أن تجرؤ على الجهر بسؤاله : هل ينسى زوجي حساب الزمن بحيث لا يعرف إن كان في السجن أو إن كان في البيت ؟ . لكنها مع كل ذلك كانت تكن له الحب ، وتعتقد أن غيرته عليها ذات فرعين ، مثل فرعى النيل .. واحد سره رجولته الكاملة .. والآخر سره أنوثتها وجمالها ..

والفرعان معا يصبان في بحر الحب الذي لا شاطئ له .
وامتلأت نفسها بالحسرة ، وجالت في عينيها الدموع عندما عاودتها هذه



وكانت تخافه كأنها امرأة في سجن النساء

الذكريات ، وهذه الشقة التي تسكنها منذ عشرين عاما لا تزال محتفظة بوقع خطواته الثابتة وهو داخل آخر الليل ، وبرائحة منديله المعطر بالكولونيا ، وهو خارج وقت الصباح .

ونظرت الست بيهة إلى المصاييح الكهربائية التي أخذت تهتز بنسمة عابرة من إحدى النوافذ ، ثم قامت تتمشي في المسكن فسمعت وقع أقدامها ، فأحست كأنها في خراب ، وتمنت في قرارة نفسها أن يطرق عليها أحد بابها .. أى أحد ممن تعرفهم مادام ابنها العاق لا يأتي إلى المنزل إلا في ليال نادرة ، عندما تعضه الحاجة إلى شيء ما ، فيبيت ليلة أو أكثر يستمع الناس فيها إلى عراكهما وبعد أن يأخذ ما تقع عليه يده من نقودها أو حليها يذهب إلى حيث كان ، وتبقى الست بيهة في انتظار الدورة القادمة .

ولو أن هذا الابن الضال قد كان السبب المباشر في موت أبيه المرحوم ، ففي إحدى ليالي الشتاء منذ عشر سنوات نشب خلاف بين الأب وابنه الشاب بسبب فشله في الدراسة ، ومبيته خارج المنزل وأخذته النقود من البيت بوسائل مخيفة . وتذكرت الست بيهة هذه الليلة حين كان الأب راجعا من الخارج فوجد المعركة محتدمة بين الشاب وأمه . وأختاه واقفتان تبكيان أو تدوران حول ميدان المعركة في وجل . ولما أدار مأمور السجن — أى الوالد — المفتاح في باب الشقة ، ورأى ما رأى ، ظل منتصباً بجثته الضخمة ووجهه الحجري التعبير على بعد خطوات من الباب الذي أغلقه وراءه ، وتقدم إلى الابن وعضلاته ترتعش ثم هوى بصفعة على وجهه .. فبكى ..

من الذى بكى ؟؟

لقد بكى الأب ولم يبك الابن ، بل ظل واضعا كفه على مكان اللطمة ، محملا في أبيه في غيظ الذئب المحبوس ، وانخرط الرجل الضخم في البكاء

بشكل هستيرى جعل الست بهية تعجب ، كيف ييكي هذا الذى يمثل فى نفسها قوة جبارة .. مثلاً .. كيف ييكي القضاء والقدر ؟؟
وحملت البنتان ليلئذ فى ذهول ، ثم فرت كل واحدة إلى ركن من البيت وجلس الأب بطوله وعرضه على كرسي من الخيزران فى اللحظة التى فر الشاب فيها خارجاً من الباب ، وتزايد اهتزاز الأب ييكائه حتى صار تشنجا ثم .. نوبة تشبه الصرع سقط بعدها الأب ، وظل أسيرها حتى مات فى خلال شهرين .

ها هى ذى الست بهية تنظر إلى المصابيح التى أشعلتها كلها لتبدد الظلام وتختفى الوحشة ، وتتمنى أن يدخل عليها أحد . وذهبت إلى الخادمة الصغيرة لتوقظها ، غير أن تعب النهار جعل نومها ثقيلًا ، فذهب جهداها هباء .. لكنها لم تلبث أن سمعت الجرس يدق فسارعت فى مشية البطة إلى الباب تفتحه ، فلما رأت وجه القادمة هتفت فى عجب : أم إمام ؟؟ .. ماذا أتى بك الآن .. ؟؟ آه .. ادخلى .

وجلست أم إمام على مقربة من الست بهية تحمق فيها بلا تكليف ، وعلى وجهها الأسمر الناحل ومضة ابتسامة نسوية سر سحرها مجهول ، وأم إمام هذه زوجة أحد القراشين فى مدارس الحكومة ، فقيرة كثيرة العيال ليس فيها شىء جميل إلا ذلك السر المجهول الذى يسمى بالنعومة وحسن التأنى للأمور . وكان موقعها من نفس الست بهية هو موقع الوصيفة المخلصة فى قصور أيام زمان ، مع فارق واحد هو أن أم إمام كانت امرأة عامة ، تعرف سيدات كثيرات غير الست بهية ، ومن الممكن أن يضعنها فى الاعتبار نفسه أيضا . وضحكت أم إمام فى مرح تحاول به أن تمحو هموم الست ، لكن الست قالت بصوتها اللين المبحوح :

(الضفيرة السوداء)

— لقد بدأت أشعر بالوحدة ... وكأن الشقة يا أم إمام لا تزال فيها جثة زوجي (ودمعت عيناها الجميلتان) أنا أشعر كأنني في مأتم .
فركبتها المرأة في صمت ونهضت بسرعة من خطر له خاطر مفيد ،
ودخلت إلى نهاية الطريقة الضيقة التي يقع فيها الحمام ، وتبعها الست بهية
بخطرها وسمعتها فتناهى إليها بعد قليل صوت أزيز وابور الجاز ، وصوت
طشت نحاسي يجر على البلاط فعلمت أنها تجهز حماما .

وبعد الفترة المطلوبة لسخونة الماء دخلت المرأة مع الست بهية لائذة
بالصمت ، مستسلمة للجو الذي يسود الحمامات عادة ، من الهدوء
اللطيف ، ورائحة عطر الصابون ، أما المرأة الأخرى فقد عادت بكلامها إلى
ذكرى ليلة قرية ... كانت أول أمس فقط ... ليلة كانت بنت الست بهية في
جلوة العروس ، وكان أحد أقارب « العريس » قد حام حول المكان في طلب
شيء ، فنادى أم إمام ثم سألتها : من هذه السيدة ؟؟ من هذه السيدة يا أم إمام ؟
وانفك حصار الصمت حول فم الست لأول مرة في هذه الليلة حين
سألت أم إمام قائلة وكأنها تنفي عن نفسها كل حسن :

— وما الذي أعجبه في حتى يسأل عني ؟؟

فأخذت المرأة تصف لها محاسن وجهها وتفصيل جسمها وهي تريق عليها
الماء الفاتر، في حذق ومهارة وعدم مجانبة للحق، فإن الست بهية كانت ذات وجه
يخطف كل عين ، وعقل يصدق كل قضية تتعلق بجمالها . تذكرك بإحدى
هوانم الترك اللاتي سقط عنهن « اليشمك » تلبس بعد ترملها في الخارج أرق
أنواع الحرير الأسود وأكثره شفافية ، وتبدو منه عضداها وظهرها من الخلف
في رونق يجعل العين تنسى تاريخ ميلادها على كل حال .

وعادت الست تسأل المرأة متجاهلة كل ما وصفتها به : « ولكن لماذا

يسأل عنى ؟ « فضحكت أم إمام ضحكة ظاهرة المعنى حملت الست على أن تقول لها بلهجة فيها شبه تأنيب :

— لقد كنت حقيقة صاحبة الفضل في جلب الأزواج لبناتي ، لكنني أستبعد عليك أن تفكرى في أن تجلبى لى زوجا ... فنحن قد شبعنا من الدنيا . ولم تكن هذه هى الحقيقة الكامنة في أعماقها ، بل كانت تتمنى في قرارة نفسها أن تتزوج ، غير أن ظروف حياتها لم تكن مواتية ، فلم تجرؤ على أن تفعل وبناتها لا تزال معها عذراء ، فلما تولت أم إمام تدبير الأمور للبنتين ، وسار كل شىء على ما يرام — أحست الست أنه من الممكن أن تكون في الحياة فرصة أخيرة .

وعلى مر الليالى ، ويتداول الحديث في السهرات ، وبما كانت تقدمه الست بيهة للمرأة من هدايا ، بدأت المسألة في خاطرها تأخذ وضعاً جديراً باعتبار الناس . وضعاً اجتماعياً يحنأ أوحى به الست بيهة إلى المرأة ، ثم عادت المرأة فأوحى به إلى الست بيهة كأنه من بنات أفكارها هى . وكان للهدايا والمنح دخل كبير في اقتناع الأخيرة بما قالت — وهذا الوضع هو : « ما قول الناس في امرأة تعيش وحيدة فيها كثير من الجمال على الرغم من أنها جاوزت الخريف ؟ ألا يظنون بها الظنون إن رأوا رجلاً يدخل بيتها لبعض المصالح المالية ؟ ثم ألا يظنون بها الظنون إن رأوها تكثر من الخروج لقضاء مصلحة أو زيارة أحد ؟ فلم تتحمل كل هذا العناء ؟ » .

ويدون أن تحس ... رأت الست نفسها تكشف عن أمانيتها للناس وهى واقفة على أعلى منبر . فكما يرمى الصيد في أحضان النمر من فرط خوفه منه . وجدت الست بيهة نفسها ذات مساء تعلن لابنها رغبة نفسها ، أثناء عراك نشب بينهما على المال ... هى نفس القصة القديمة التى لم تتغير لكس

مسرح الحوادث كان قد خلا من كل أفراد الفرقة ما عداها هي . فأقسمت أنها ستزوج وأنها ستكتب كل ما لها لزوجها لتفر من يرائن هذا العاقل العاق ... الذى هو ابنها ، ومن مطامع ناس آخرين يودون أن تموت ، منهم زوج بنتها .

ولم يكن هذا الإنذار صالحا لأن يهدئ نائرة أكثر الناس برودا ، بل جاء كأنه زيت على نار ، فأثار فى الشاب غيرة الأبناء على الأمهات مقرونة بحرص الوارث على كل شئ سيرته . وظلت هذه العوامل سببا فعالا فى تفاقم الخلاف ، وتوسيع الفجوة بين القليين . وكانت بالتالى سببا ملحا وحيويا معقولا فى قبول مشورة أم إمام بأن الحل النهائى للموقف لا يكون إلا بالزواج ...

وإذا كانت تجربة أول أعمارنا تثير فىنا المخاوف مع وجود القرص لتدارك الأخطاء وتعويض الخسائر ، فما بالنا بتجارب آخر العمر ؟؟
وهست الست بية ووجهها قريب من وجه أم إمام وعيناها الجميلتان شاردتان قائلة لها « لكننى خائفة » .

وجاءتها ضحكة من المرأة الناعمة التى أكلت على موائد عشرة أحياء من المدينة وتقبلت هدايا كثير من الرجال والنساء ، لأنها كما تقول عن نفسها :
« فقيرة لها فى الجنة ألف قصر فقد جمعت فى الحلال رعوسا لا تحصى ولا تعد » .

وانقطعت زيارة الابن عن أمه ، وجاء زوج البنت الأولى ذات ليلة يطلب منها قرضا حتى نهاية الشهر .. طبعاً من القروض التى لا ترد . فلما ذكرته بما مضى خرج هو وأرسل زوجته . ودخلت الفتاة على أمها نائرة لا تعرف ما تقول ، خصوصا بعد ما تنهى إلى سمعها أن أمها تفكر فى الزواج وأنه

من الطبيعي أن يستأثر الزوج بكل خيراتها .

— إن مرتب زوجي عشرون جنيتها نسكن منها بثمانية وعندنا أولاد .

— وأنا مالي ؟ .

— أأنت التي زوجتني له ؟

— لأنه من الضروري أن تتزوجي .

فقالت البنت بلهجة ذات معنى :

— كل الناس في نظرك ونظر أم إمام لابد أن يتزوجوا .. كل الناس ؟

ثم صمتت ونظرت كل إلى الأخرى في حنق ، واستطردت البنت :

— لا داعي للنقود ... عندي اقتراح آخر .. فهل تعرفين عنوان واحدة

منهن ؟؟

فسألت الست ببهة في تعجب :

— من ؟

— من إحدى المرايبات ، فأنا مستعدة أن آخذ الجنيه بريال من أى

مرايبة ؟

واحتدم الجدل مرة أخرى بين المرأتين ، وجرى نقاش يشبه « كشف

الحساب » حول معاش الست ببهة ودخلها من أرضها التي ورثتها عن أبيها ،

فضلا على أنها تسكن بإيجار قديم فكأنها ساكنة بلا أجر . وهي امرأة لم تعرف

المرض وتعاذى الدواء حتى أقراص الأسبرين ، وفيها حياة أكثر من بناتها ،

فهناك إذن دخل بلا نفقات .

وكلما دخلت عليها أم إمام عتبة المسكن كانت تقول قبل أن تخطو إلى

الداخل :

— يا حفيظ ؟ .. ما للدنيا ساكنة عندك كده ؟ .. ولا سكون القرافة ؟

ثم تسألها بعد ذلك عما جد من أحوال ، وهل هناك مطاعم جديدة ؟
وجسمت في نفسها خاطرا كان له أصل ، هو أن مصيرها أحد اثنين :
فإما أن يقص أجنحتها أولادها المحتاجون دائما إلى المال ، فلا يبقى لها إلا
المعاش وربما طال العمر فلن يكفيها ، وليس هناك بيت يغنى بيتا ، وإذا كان
ابنها عاقا فاشلا فلن ينفعها أزواج البنات ...

وإما أن تتركب عربة من القطار قبل أن يغادر المحطة .. قطار الزواج ..
ثم تتحدث بعد ذلك حديثا كأنه لا يعنى الست بهية في شيء ، وإن كان كله
موجها إليها . عن أناس سعدوا في طرفة عين ، بمجرد مصادفة جمعتهم في
مكان ما فتزوج بعضهم بعضا .

— « وإلا ماذا يعمل الناس إذا لم يتزوجوا يا ست بهية » ؟

ثم قالت لها بعد شهرين :

— لن يحس أحد بما سيحدث في منزلك مطلقا ، فسيجىء معى عريس
مناسب صباح غد ، في الوقت الذى تكون بناتك فيه مشغولات بأعمالهن ،
وهو رجل من ذوى الأملاك ، في الستين من عمره ... ولا أكذب عليك —
وبصحة حسنة . لم ينبج إلا ذكورا وتزوجوا وتركوه يعانى الوحدة ...
ومصممت بشفتيها في حسرة ، طالبة من الله أن يجعل يومها قبل يوم
زوجها ، ثم استطردت :

— أنت خائفة من أولادك ؟ .. ماذا يفعلون حينما يعلمون أن زوجا شرعيا
غنيا محترما نقلت إلى بيته ولا يريد منك مالا وأن خادما زنجيا يشبه المارد سيفتح
الباب لمن يدين الجرس كما حدث لى .. وفيها غنائم .. أعطى هذه الشقة
الرخيصة لبتك درية التى يدفع زوجها نصف مرتبه في أجرة السكن ويعيش
بقية الشهر معتمدا على « ما اعرفش » .

وتنهدت أم إمام ، وكانت الست بهية طول المدة ساكنة لا تتكلم وتتصور أنها ستموت وحيدة محتاجة ، وأن إحدى بناتها ستكون في دور الولادة وأن الأخرى ستكون مريضة بالحمى ليلة موتها ، أما ابنها الضال فسيأتي بعد أسبوع أو أكثر عندما يصل إليه الخبر في المكان الذي سيكون فيه ... سيأتي مشمرا عن ساعديه وساقيه يجري عرقان ليسأل عن تفاصيل الميراث الذي سيضيعه في بحر سنة .

فتنهدت بهية ونظرت مرة أخرى إلى أم إمام وقالت لها وعيناها شاردتان :
— أنا خائفة ...

— هل غششتك فيما قلت ؟

فهزت رأسها نفيا ، فقالت المرأة :

— لماذا أغشك في أعز مهمة سأفعلها من أجلك ؟ إنكلى على الله .

وأخذت ملائمتها والتفت بها وانصرفت كأنها طيف خيث .

وفي الموعد المحدد دق الباب ، وكانت الست بهية في أبي زيتها .
إحدى هوائيم الترك سقط عن وجهها « اليشمك » ، في ثوب جميل غير مكشوف تتحرك فيه كأنها بطء . ودلف إلى حجرة الصالون رجل مسن لم تبين ملامحه من أول نظرة . فقد كانت على عينيها الغشاوة التي تحجب منظر العرسان عن عيون العذارى في مواقف الخطبة الملعونة ، وقلبي يخفق وكادت بعد أن دخل الرجل تقول لأم إمام : « خذيه واخرجي ، فأنا لا أريد » .
ودق الباب في هذه اللحظة دقة تشبه دقة ابنها فدارت بها الأرض ، وحمدت الله حينما علمت أنه صبي جديد لبائع الزبادي جاء يطلب « الفارغ » فقالت لها أم إمام : « بيضاء .. إن شاء الله » .

وجلس العريس يحتسى القهوة ، وبعد أن فرغ منها اعتمد بذقنه

على عصا من الأبنوس لامعة ، وسادت فترة صمت كان الرجل فيها مأخوذاً ولا شك بالخصوبة والحياة التي رآها في بيت الست بهية ، وفي البسمة التي لم تنطفئ بعد على شفيتها الخاليتين من أى دهان .

ورأى العريس أنه لا بد أن يتكلم فهو السلك « الموجب » في مواقف الخطبة دائماً ، فتحدث عن الوحدة ، وعن زواج أبنائه ، وأن الله وفقهم جميعاً في وظائفهم وزوجاتهم ، وأنه يأكل وحده ، وضحك عن أسنان في أناقة الأقحوان ونظافته وبياضه . أحسن تركيبها طبيب مشهور . ثم أحس بشيء من العرق فرفع الطربوش عن أصباغ سوداء تغطى شعر رأسه المفروق ، وقد لوئت جزءاً من الجبهة بلون بنفسجي . ولد من الأخلاط السوداء التي بقعت بشرته المائلة إلى الحمرة .

وكان يتحدث عن مرض « النقرس » في اللحظة التي خلع فيها نظارته لينظف زجاجها ، فظهرت عيناان متفتختا المقلة ، شديداً الاحمرار كأن صاحبهما سكير مدمن ، وسقطت العصا الأبنوس على الأرض فأخذها بيد شديدة الارتعاش ، كأنها قطعة من الجريد يسير بها إلى الأرض .

ولما أشعل السيجارة كبح طويلاً فلعن البرد وفعله بالناس . وخیل إلى الست بهية أن « طاقم أسنانه » سيثب من فمه أثناء السعال فراودتها ابتسامة غطتها بطرحة « الدانتلا » الجميلة التي طرحتها على رأسها .

لم تكن الست بهية تتوقع بالطبع أن ترى شاباً في ريعان صباه ، بل كانت تتوقع أن ترى شيخاً لا شبهاً . وغطى على كل أفكارها صوت أم إمام وهي تسأل الرجل أسئلة تفيد أجوبتها بما يشرح قلب العروس :

— وهل عثرت على طباخ جديد يا بيه ؟

— وما قصة الساكن الذي لم يدفع الأجرة لمدة سنة ؟ تركه الله ؟

والنبي ابن أصل .

وأوشكت الجلسة على الانتهاء ، فاقترحت أم إمام قبل الخروج أن يتفرج سعادة البية على الشقة التي تسكنها الست بيهة وحدها ، ولم تر صاحبة الشأن فرصة تسجل فيها اعتراضها فقد بدأت أم إمام في تنفيذ الفكرة ، وأخذ البية يمشي الهويناء ونقرات عصاه ترن على الأماكن غير المفروشة في نواحي المسكن ، وهو يردد كلمات عرفت الست بيهة أنها هي المقصودة بها :

— يا سلام يا سلام ... يارب زود وبارك ... في نظري أنا .. هذه ال ..
ال .. الشقة ، ولا في الدنيا مثلها .. ولا واحدة كان ..

ولما وصل إلى الباب الخارجى أمسك يدها البضة يسلم عليها وهزها في شغف من يقول : إلى اللقاء ..

ولما انفردت المرأتان سألت أم إمام صاحبها وعلى فمها تلك الابتسامة الناعمة المجهولة السحر :

— إيه ... ما رأيك ؟

فتهدت الست بيهة في عمق شديد وتأوهت وهي تقول :

— رأيي ؟ .. تعرفينه غدا مساء ! اتركيني أفكر !

ولما التقت المرأتان في المساء التالى كانت الست بيهة بادية المهوم ، وخمنت المرأة الثانية أنها في دوامة التفكير فيما يجب أن تفعله مع أبنائها إن وافقت على الزواج من هذا الرجل . لكن ظنها أخذ يتبدد بعد أن قالت الست :

— لعلك تعلمين يا أم إمام أنني كنت أحب زوجي المرحوم جدا ، ولذلك

كان شعوري طول اليوم الماضى شعور المرأة التي ستلبس بعد قميص الحرير قميصا من الدمور و ..

فقاطعتها أم إمام ، بعد أن رشقتها بنظرة مليئة بمعان خبيثة قائلة لها :

— أستغفر الله العظيم .. لم يكن قصدنا يا ست أولا إلا تخليصك من الوحدة .. ثم .. هو رجل كبير المقام .
فشهقت بهية وقالت :

— وعندما يراه أولادى ويراه الناس سيقولون قولاً حقاً : « ما معنى زواجها من هذا الرجل ؟ لأجل أنه غنى قادر ؟ كيف ذلك وهى غير محتاجة . إذن فالمسألة قبل كل شىء رغبة الزواج منها هى .. ولو تقدم لها خير من هذا العريس لقبلة طبعاً بدليل أنها رضيت بالحطام المربوط .

ثم سكنت لتستطرد : هذا ما سيقوله الناس يا أم إمام فما رأيك ؟ وأحست المرأة أن القضية أصبحت ذات شعبتين .. شعبة الكرامة ، وشعبة عدم الغبن فى الصفة ، وأنه مادام « الأمر سيعمل » فلماذا لا يعمل على أصوله ؟ .
واقترنت بينها وبين نفسها بموقف الست بهية ، وقبل أن تفيق من تفكيرها جاءها صوتها عالياً يقول بعد أن رن بالضحك :

— ثم أنا لا أريد أن أجدد أحزاني على المرحوم ، فإنه بعد بضعة أشهر أو ربما سنة سيموت هذا الرجل فتجدد الأحران بلا مقابل ؟
وفى الوقت الذى كانت أم إمام فيه مشغولة بالبحث عن عريس آخر ، عادت الدوافع الخارجية حول الست بهية تؤكد لها ظلام مستقبلها بين أبنائها .

فقد دخل عليها ذات مساء ابنها الظالم الذى يشغل عدداً من الأعمال ولا عمل له .. دخل معصوب الجبين برباط من الشاش ، وكان وجهه المنطفيء البادى عليه الجهد ، تلمع فيه عينان عصبيتان مخيفتان . واحتضنته الأم ، خائفة عليه ، خائفة منه فى وقت واحد ، فدفعها بكلتا يديه ليعدها ، فسقطت جالسة على أقرب كرسي فى المدخل ، ثم جلس يدخن فى عصبية

تثير الجنون وينفخ الدخان في المصباح الكهربائي في السقف وعيناه تحملقان نحوه .

وظنت الأم أنه مجنون أو مقدم على ارتكاب جريمة ، وقام فجال خلال المسكن دون أن تجرؤ على التحرك خلفه . فقد خمنت أنه علم بما حدث ، وأنه جاء بشحنة من الغضب والكره قد تؤدي إلى عمل كره . وجعلت تذكر الليلة التي ولدته فيها والزغردة التي أطلقتها خادمة في الصالة حين بشروا بغلام ، والرعد والبرق وهطول المطر وقت المخاض . وتذكرت الصفعة التي أهداها إليه والده ثم مات بعدها من الغيظ لأنها كانت علامة اليأس في نظره .

ووقع خطواته في الشقة يدل على الشر ، وطلب نقودا فأعطته ، وعاد فجلس يدخن وينفخ في وجهها .

واستجمعت كل قواها وسألته :

— ماذا أصابك ؟

« وأشارت إلى رأسه » .

— وأنت مالك ؟

— أأنت أملك ؟

فأجاب في حق :

— من الغريب أننا نستطيع أن نقول لآبائنا : لا . ولا يمكن أن نقولها

لأمهاتنا ، فأنت أُمِّي ضروري .

— عال . إذن ما أصابك يا بني ؟

— كنت في معركة .

فخبطت صدرها وقالت :

— معركة ؟

— نعم وأصبت رجلا بإصابة أرجو ألا تتحول إلى عاهة دائمة ، وماذا
أعمل ما دام غضبي يدفعني غالبا إلى ارتكاب جرائم ؟
فانكملت المرأة في نفسها ، وملأها الخوف ، وتعجبت كيف أنجيت
مثل هذا الشاذ وسألته :

— وهل صالحت زوجتك ؟

— لا تسأليني عما لا دخل لك فيه ..

— وأين كنت قبل أن تجيء إلى هنا ؟

— كنت في ميناء بور سعيد أشغل عملا هاما .. لكن .. دب خلاف بيني
وبين رئيس منتطع فتركت عملي .

وسكت ليقول وهو يشعل سيجارة :

— أنا أعرف ما تقولينه في نفسك الآن . تقولين هذه ثانی زوجة وعاشر
عمل ، ولم تفلح في شيء .: طبعاً .. لكن ليس هذا ذنبى وحدى .. بل ذنب
الناس الذين استعصى فهمى على عقولهم .

فلم تملك الست بهية أن تمنع نفسها من الضحك ، فتلقت ابنها حوله في
عجب وقال لها كمن كان يترصد أخطاء الآخر ليأخذها بها ، قال بصوت
صارخ :

— من أى شيء تضحكين ؟ . نكتة قلتها ؟ . هل تضحكين من
جروحي ؟ لقد بلغنى أنك ستزوجين فعلا وأقسم لك أنك إن فعلت
فستكون العاقبة وخيمة .

ثم قام مسرعا وصفق خلفه الباب ، فساد صمت يأخذ بمجامع الأنفاس
ويكاد يتخفق ، وهبطت على المكان وحشة جريئة حين بقى منظر الضمادة

على جبين الابن مائلا أمام عينيها . فقامت وأشعلت معظم مصابيح الشقة ، وعادت فجلست تستمع إلى وساوس نفسها .

ولم تكن الست بهية تعلم أن ابنها كذاب حتى فيما يتعلق بحقيقة الإصابة التي في جبينه ، فلم يكن هناك عراك ولا اشتباك ولا عاهات بل كان راكبا سيارة أحد أصدقائه الرقعاء المولعين بالسرعة فأصبيا في تصادم ، لكنه انتهر هذه الفرصة ليثير في قلبها المخاوف حتى يأخذ ما يشاء .

كل هذه العوامل التي أحاطت بالست بهية جعلتها تحس بالضعف أمام إغراء أم إمام بالزواج ، فضلا عن أن المرأة كائن يحب العطاء وهي لذلك تبدو أكثر من الرجل تشبها بالحياة العاطفية والعائلية ، ومن هنا جاء ميلها القطري المشهور في تناسبها حقيقة سنها .

وهذه أيضا جعلت الست بهية التي تملك بقية صالحة من الحسن توازن بين الإقامة في بيت العذاب الذي تقطن فيه ، وبين الرحيل إلى الجنة الموعودة التي تبحث لها أم إمام عن مفتاحها .

وقررت مرة أخرى أنه من الخطأ أن تستسلم لقيود الأسرة وأنه إذا ما وجدت الزوج المعقول فإنها لن تتردد .

وانقطعت أم إمام شهرا لم ترها فيه ، ثم دخلت على شوق متلهلة الأسارير ، معلنة في فرحة المكشف أن ليلة القدر قد كانت ليلة ميلاد الست بهية ، وأن الصبر المر الطعم سينقلب حالا إلى عسل .

وسألته الست بهية عن الحكاية فمالت عليها المرأة تحكى والابتسامة الناعمة المجهولة السحر مطبوعة على وجهها الأسمر :

— إنه رجل تعب من الوحدة .. مثل حالك .

— ماتت زوجته ؟

— ألعن .

— ألعن ؟ .. لا أستطيع أن أفهم .. هل طلقها ؟

— لقد زوجوه وهو صغير السن بعد أن وظف مباشرة ، من قرية ريفية منذ أكثر من عشرين سنة ، وتغيرت الدنيا ورأى النور في المدينة وهو لا يزال صغيرا والست إياها .. لم تتغير

— هل تريد أن أتزوج على ضرة ؟

— الصبر جميل . اتركيني أكمل الحكاية ، ولم يدر هذا الرجل المسكين ماذا أصاب زوجته . كان وزنها يزيد كل شهر ثلاثة كيلو جرامات وبقيت تزيد وتزيد حتى تحولت إلى فيل .

— اللهم احفظنا .

— ليس هذا هو المهم فالرجل مظلوم ، ليس بطران ولا كافرا بالعشرة حتى مع الفيل ، فقد أصيبت بشلل من كثرة الشحم وهو مع ذلك محتفظ بها لأنه أنجب منها بتين .

وشعرت الست بهية أن أم إمام تتكلم عن إنسان ، فيه كل معاني الإنسانية لكن له عذرا آخر . عذر رجل صحيح سليم يعيش في مدينة تملؤها المغريات فليس عليه من عيب إذا حصن نفسه بالزواج . أليس ذلك خيرا من الطريق المعوج ؟

وخالطت صدرها راحة رطبة مثل التي نحسها عقب شرب الماء البارد بعد ظمأ شديد في يوم حر . فتنفست الصعداء وسألتها :

— ما عمله ؟

— موظف عال العال غير محتاج لأحد ، وقد تعهد أن يفتح لك بيتا صغيرا لأنه لا يوافق على أن يسكن مكان زوجك الأول .

وأحست الست بهية — بعد الكلمة الأخيرة — أن شيئاً قد لسعها ..
وسألت نفسها : « هل سيغار على ؟ » لكنها عادت فأكبرته في قلبها ،
وكادت تعرف شخصيته من خصاله ، فقالت المرأة :

— لا مانع أن نتقابل .. لكن .. أتعرفين أين ؟ سيكون ذلك في منزل
الحاجة كريمة صديقتي ، منعا للمشاكل .

وفي منزل الحاجة كريمة تقابل العروسان ، واحتفلت بهما ربة البيت الطيبة
المسنة ، وكانت تخلى لهما المكان فترة بعد فترة ليستطيعا أن يتحدثا عن
مستقبلهما بحرية .

أما العريس فقد كان هو السيد أفندى المصرى الموظف بوزارة التموين .
رجل في حدود الأربعين لم تستطع الست بهية التى لبست ليلتشد أبهى ما
عندها — أن تحبس عينيها عن تطلع مزاياه ، روحه تتوالب من عينيها الواسعتين
السليمتين الذابلتين ، اللتين لا تخلوان من التعبير أبداً . وكان رقيق العود أنيق
الملبس على الرغم من أن ثيابه ليست من النوع الغالى فقميصه الأبيض ورباط
عنته الأحمر وبذلته البيج ، وشعره الذى لم يتساقط منه شيء وإن وخطه
الشيب ، ولونه الفخارى الحلو ..

كل هذه المعالم ارتبطت في خاطر الست بهية بمعالم الوجيه السابق ذى
الشعر المصبوغ ، والوجه المتوف والعصا الأبنوس .

فأحست أنها أمام حياة يمكن أن تبدأ ، في جنة رجل مستقيم حرمه الله من
زوجته بمرضها ، فراعى حقوق الله في كل تصرفاته .

وكان يكلمها باحترام شديد ، فلا يخاطبها إلا بلفظ « هانم » ويميل رأسه
أثناء الموافقة على رأى ما كأنه عاشر الدبلوماسيين ، ويشرب الماء بنهم والقهوة
بنهم ويمص السيجارة بنهم ويتحدث عن موعد إنهاء الأمور بينهما بعجلة رجل

يريد أن يحب من الحياة .

ووازنت الست بيه وجهه المعبر ، والشارب الرفيع على وجهه المسمم
وبين وجه المرحوم مأمور السجن ، فحادت عن الذكر كما يعز علينا أن تطأ
قدمنا جثة عصفور على قارعة الطريق .

وتكلم السيد أفندى المصرى موجزا ما يطلبه وهو يعد على أصابع يده
بطريقة حازمة مملوءة باللطافة :

— أولا : أنا أحتقر كل رجل يطمع فى مال زوجته ، وبناء عليه فأنت حرة
فى تدبير أموالك ، وثانيا : أنا فى عيب واحد يجب أن تعرفيه منذ الآن حتى
لا أغشك ، وحتى لا ألام فيما بعد . سأقوله لك بكل صراحة لأن هذا يترتب
عليه سعادة حياتنا الزوجية ، فهل من الممكن أن أقوله بصراحة ستكون طابع
حياتنا معا ؟ .

فتقلصت شفة الست ، وشحب وجهها فصارت فى بياض اللبن وسألتها
وقلبها يدق :

— وما هذا ؟

— هذا .. هو .. أنتى « ثم رفع صوته فى حماسة « رجل شديد الغيرة ،
غيور إلى حد مرعب .. فإن قبلت أهلا وسهلا .. وإلا ..
وقلب كفيه .

فبلعت ريقها وحمدت الله وأخذت نفسا عميقا ، وشعرت بسعادة
لا حدود لها أوسع من الأرض والسماء . ولم تكن تدري لماذا شعرت بكل
ذلك . وما ذلك إلا لأنها نسيت عالمها الخارجى فى هذه الوهلة ، كغمضة
العين التى يمن بها علينا الله فى أخريات ليل ملء بالسقام .

فى المساء التالى أكدت أم إمام كلمة الموافقة التى حملتها من الطرف

الأول إلى الطرف الثانى ، ثم من الطرف الثانى إلى الطرف الأول . وهمت
فى أذن الست بهية لتجيب عن سؤالها :

— تقولين أنه أصغر منك بعشر سنوات ، وتسألين لماذا اختارك أنت ؟
يا سلام .. تظنين أنى لم أسأله هذا السؤال حين وافق على مبدأ الزواج
منك قبل أن يراك ؟ لقد قال : « إننى محتاج فى الفترة الباقية من حياتى إلى امرأة
تخاف على لا إلى امرأة أخاف عليها .. وزيادة على ذلك فعروستى جميلة » .
فهزت الست بهية رأسها وقد أفتعها هذا المنطق .

وكان كل شىء يجب أن يعد بسرعة فهذه مطالب العريس . لكن المشكلة
الكبرى لدى الست بهية كانت فى التى يبلغ بها الخبر إلى أبنائها . هل من
الأحسن أن يصبحوا ذات يوم فيجدوها فى الجنة بلا سابق إنذار ، أو العكس
وليحدث ما يحدث ؟

وقالت أم إمام وهى تغمز لها بعينها :

— ولماذا لا تتولى الحاجة كريمة الأمر عند بناتك بالنيابة عنك ؟ أما ابنك
فلا يجوز أن يعلم إلا بعد فوات الوقت ، وقد رأيت أنك ستزوجين رجلا .
وبهذه المناسبة لا أنسى أن أقول لك إننى حدثته عن التهديد المحتمل الذى ربما
تعرضت له فى بيته من .. ابنك .

فرد وعيناه مثل النار قائلًا : إذا استطاع أحد من الناس أن يؤذيها وهى
زوجتى فسأزوجها بنفسى لامرأة أخرى .. أأست رجلا ؟ هناك قانون
وهناك قوة .

فأحست الست بهية أنها لاذت بأحضانه وإن كان لا يزال بعيدا ،
وشعرت بالأمان والدفء اللذين يجلبان النوم لكلا مكسود . فتهدت
وقالت :

(الضفيرة السوداء)

— الليلة يا أم إمام فساُجعل الحاجة كريمة تتوسط في الموضوع .
واستدعت الحاجة كريمة « درية » أكبر بنات الست بهية فأسرعت إليها
لأنها تعلم أنها قاضية حاجاتهم دائما عند أمها .
ودخلت معها الحاجة في الموضوع رأسا سائلة إياها :
— لقد مات أبوك منذ عشر سنوات ، وكنت أنت ابنة تسع سنوات ،
وأختك ابنة سبع سنوات ، فلو فرضنا أن أمكم تركتكم فماذا كان
سيحدث ؟

فردت الفتاة ببرود :
— لا شيء مطلقا ، فهناك واحد كان يرعى أمرنا .
— أتقصدين أخاك ؟
— أقصد الله .

فابتسمت الحاجة من الشك الذي وقعت فيه وقالت :
— حسن . دعينا نتفاهم .. إن من حق أمك أن تتصرف في نفسها بما
يضمن لها الاطمئنان ، وقد اقتصت « بالمسألة » وانتهى الأمر ، هل تعرفين
معنى « المسألة » ؟ ، وهذا راجع في الحقيقة إلى أنها تعيش بينكم قلقة
باستمرار ، خائفة باستمرار ، وإلى إرادة الله قبل كل شيء .. لا تقاطعيني ..
وقد ربت لكم ما يكفل راحتكم فأنت ستسكنين مكانها في الشقة الرخيصة
الواسعة ، وأختك ، لا تزال خفيفة الحمل لأنها تزوجت قريبا ، وستعطيك
خاتمتها الماسي ، وهي ترجو منك أن تتولى إقناع ابنها الذي لا يعلم أحد متى سيطرق
عليكم الباب ، فذلك خير من الشوشرة ، وهي بحمد الله ستزوج رجلا له
ظروف اجتماعية معينة مريحة ، غير محتاج إليها ، بل على العكس قد ترك لها
الحرية في التصرف في مالها بعيدا عنه ، ويبدو أنه عظيم الشهامة .

وكان الصمت مغيما على المكان بحيث كانت نبرات الحاجة كريمة ترن فيه ، وبدا الاقتناع المقهور على وجه البنية ، لكن الغنائم العاجلة جعلتها تنهد موافقة .

وعلمت الست بهية ببعض ما حدث حين دق عليها الباب ودخلت بنتها ثم جلست في صمت ترضع طفلا وهي مطرقة نحو ثديها ووجهه ، ودموع صامته كأنها دموع أسي ووداع كانت تلوح على خدها بين اللحظة والحظة .
وسألتها الست بهية ليطمئن قلبها الذي كان يملؤه الخوف :
— هل قالت لك الحاجة كريمة كل شيء ؟

— نعم ..

— وما رأيك في موقف أخيك إذا ما حاول عمل شيء ؟
فنظرت إليها بتها نظرة مثل طرف الخنجر ، ولم تعاجلها بالجواب . وكان قلب الست بهية يدق ، ويدق ، ويدق ..
— إن الدنيا بدأت تتغير من حولنا ، وإنك ستدخلين دنيا جديدة بقوانينها وناسها فلا تفكرى فيما فات .

ألهمها هذا الرد كثيرا من الشجاعة وإن شابه شيء من المرارة .
وعندما هبط المساء وجدت نفسها تتذكر زوجها المرحوم في موقف يتكرر بين فترات . حين كانا يهبطان معا من القطار ذاهبين إلى الريف ليقضيا إحدى العطلات ، وباستمرار .. كانت ترى الست بهية على المحطة الريفية الصغيرة في انتظارها .. مهرا أبيض .. جميل البياض ، أكحل العينين ، كثيرا ما تبختر بها بين المزارع وهي في طريقها إلى البيت وخيل إلى الست بهية على طول الزمن أن هذا المهر قد عرفها ، وجعلت في هذا المساء تحاول جاهدة أن ترى الخيط الذي جعل صورة زوجها الجديد ، السيد أفسدى المصرى

ترتبط بصورة هذا المهر .. واعتقدت أنها قد وصلت ..
وفي شقة صغيرة عالية متوسطة الإيجار في حي المالية الجميل الهادئ —
قريبا من وزارة التموين — سكن العروسان .
وكانت الشقة عالية ليس فوقها شيء .. إلا السماء لذلك لم تكن دعوات
الست بهية لزوجها وقت الضحى وهي تعد له الغداء تجدد شيئا تتخبط فيه وهي
في طريقها إلى الملاء الأعلى ، فقد كانت تدعو للسيد أفندي أن يعطيه الصحة ،
وأن يكتب الراحة لزوجته المشلولة ، وأن يقدرها على رضاه لأنه رجل
مخلص .

وأحست بعد أسبوعين أن خلايا جديدة نبضت في جسمها الأبيض .
واستمعت مع كل مساء إلى السمر الحلو وأحدث نكت القرن العشرين .
ثم أخذت تنظر إلى الليل الجديد نظرة عذراء استيقظت فألقت نفسها في
عش غرام ، فأخذتها لفة خفقت بفعلها الروح من أن يزول هذا الشفق الذي
يمثل حسنها ، فاتسمت أعمالها بمبالغة كانت تعجب منها إذا ما خلعت بنفسها .
وكل ساعة تمر تترك في نفسها غمرة من الحب ، وبلغت الحمى ذروتها
ذات ليلة حتى كادت تهذى بحبه حين قال وهو يتأوه :
— لو أن الله يحبنا .. لو أنه يريد أن يتم علينا نعمته .. لو أنه شاء أن يحول
بيتنا إلى جنة .. لأعطاني منك ولدا ذكرا فأنت تعلمين أنني لم أخلف إلا
بتين ..

ودفن وجهه في صدرها كأنه طفل ، وأحست حرارة أنفاسه واضطرابه
كأنه على وشك أن يبكي . فأجهشت هي بالبكاء إذ أحست بسعادة وتعاسة
مزجتا في كأس واحدة . ثم قالت وهي تمسح على شعره :
— لكن .. ربما .. بالنسبة لي .. يكون الأمر صعبا .

فرفع إليها عينيه الواهتين قائلاً لها في شبه عتاب ، باعثا بالأمل :
— أنت إذن لا تعرفين معجزات الطب . ثم .. هناك شيء اسمه القلب ..
قلبي يحدثنى بأننا سنتنجح .

— هل نذهب لطبيب مشهور ؟
— ولا تتخذهى بالشهرة ، هناك أحد أصدقائى الشبان حقق المعجزات
لكثير من النساء .

ولم يبدأ فى التنفيذ على الفور ، وبعد شهرين من هذا الحديث قالت له :
— أليس من حق أولادك وزوجتك المريضة أن تبيت عندهم ليلة ؟
لا تجعلهم يكرهوننى .
فقال بإكبار :

— أنت سيدة عظيمة . أنا تزوجت امرأة السلطان عبد الحميد أو محمد
الفاتح وسليم الأول . لماذا ؟ لا أدرى . ثم هل تعلمين أن بنائى من كثرة مدحى
فيك أصبح يحبينك غايبا ، وزوجتى المشلولة قد لا تصدقين أنها لا تحقد
عليك ، فماذا تعملين للناس حتى يحبك منهم كل سن ؟ .. هل أنت
ساحرة ؟

ولم يبت فى مسكن الست بهية أسبوعا كاملا بعد هذه الليلة بحجة أن امراته
الأولى فى خطر . ورفهت عنه وقدمت له — وهو كاره — بعض المال فأخذه
فى تأفف . وحل أول الشهر فدفعت الأجرة لأن البواب دق الجرس وقدم
الإيصال وزوجها غائب وهى تعلم أن زوجها فى دوامة .

ثم عاد إليها مليئا بالشوق . واتفقضى شهر وقرب العيد وحالة المشلولة لم
تتحسن . وأخذها وذهب بها إلى طبيب أمراض النساء والولادة ، الشاب
الماهر صديقه الذى أكد لها أن علاجا منظما طويلا نوعا — للأسف —

سيعطى نتيجة حتمية . ونزلت من عنده الست بيهة فرحة متفائلة .
وقبيل العيد دق عليها الباب وزوجها لا يزال في الخارج ولما فتحت
أبصرت أمامها فتاة لا يمكن أن تكون إلا بنت السيد أفندى المصرى . وأجهل
الناس يعرف ذلك فقد كانت صورة منه ، وقالت البنت ذات الست عشرة
سنة :

— طانت بيهة ؟

— نعم يا حبيبتى .

وأشرقت ابتسامة حلوة على ثغر الفتاة ، وسألتها بأدب وأمل وكأنها
تستأذن :

— أدخل ؟ . أنا بنت السيد أفندى المصرى .

فخفق قلب المرأة واحتضنتها وأدخلتها إلى الصالون وقبلتها في كل خد ،
وسألتها في لهفة عن صحة أمها قائلة : إنه لو أمرها السيد أفندى أن تذهب
لتزورها لذهبت حاملة الهدايا ، ولكنها لم تفعل ما لا يأمرها به . فتهددت
البنت وهى مطرقة بطيبة ، وكفها تعبت بمنديل صغير فلم يكن معها حقيبة .
وسألتها زوجة أبيها :

— هل هناك طارئ ؟

فأجابت :

— إن أمى تعبانه وتريد طبيبا ولم أستطع أن أذهب إلى أبى فى الديوان ،
وعلى كل حال أنا أخشى أن يعاقبنى أبى على تصرفى فقد نبه ألا يأتى أحد منا
إلى هنا ، لكن .. وسكنت قليلا لتقول برقة :

— أنا أحبك يا طانت وكنت أريد أن أراك حتى لو آذانى أبى .. ليتك

كنت أمى .



ثم عاد إليها مليًا بالشوق

وحاولت الست أن تكتم انفعالها ففشلت فقد أخذتها نحو البنية عاطفة لم تحس بها من قبل ، خصوصا عندما رأت أن جمالها أعلى من ملابسها وأن رقتها أسمى من مظهرها . فأخذتها من يدها ودخلت إلى حجرة النوم حيث فتحت صوان ملابسها ، وجعلتها تنتقى ما يعجبها من الملابس فقد كانتا متقاربتين في الطول ، وبإصلاح بسيط لأي ثوب يمشى كل شيء على ما يرام .

ونزلت قبل أن يعود رب البيت حتى لا تغيب عن أمها ، ولم تفاجئ الست بهية زوجها بالخبر عند حضوره إلا بعد أن تغدى واستراح ، فتهد ونظر حوله كما ينظر عظيم النفس إذا وقع في حرج ، فقامت إليه ومالت عليه قائلة في إخلاص :

— أبعد هذه العشرة تبقى بيتنا الكلفة ، مالك مالى ومالى مالك ، طيب افرض أن معك مالا واحتجت أنا إلى نقود فماذا يكون موقفك ؟

فرد ببساطة :

— المفروض أنني أنفق فأنا الرجل .

فردت بحنو :

— لماذا لا تفرض أنني موظفة أعاونك بشيء من مرتبى فى بيتى حتى تنتهى ورطتك ؟ افرض هذا .

فهز رأسه كمن اقتنع بعد جهد وقال لها بعينه الواسعتين الذابلتين وهو يمص السيجارة :

— يا لك من ذكية .. لقد غلبتنى .

ومنذ هذا التاريخ انفتح الكيس ، ففى أول الشهر يكون الزوج عند المريضة (ربما مصادفة) حتى يدفع الإيجار . واشترت له بدلا جديدة كهدية من حبيب ، وأفضت له بسر ما تملك : ألفان من الجنيهات فى البنك كانت

تريد أن تشتري بهما بيتا .. وخمسة أفدنة في الريف ورثتها عن أبيها ، أما معاشها من زوجها فقد ضاع بعد الزواج الجديد ..
وكان على السيد أفندى أن يجازيها بإخلاصا بإخلاص ، فإن النقود الموضوعة بلا حركة لا تكسب شيئا ، لذلك فهي إذا وافقت فإنه سيحییء لها بأحد التجار لتكتب معه عقد اتفاق وتعطيه من المبلغ ألف جنيه ليودعها في تجارته ، وهو صاحب مكتب استيراد وتصدير يعرفه عن طريق وزارة القومين ، وهي مهمة ذات مفاجآت عجيبة ، قد ترفع في لحظة واحدة إلى السماء ، وسيتعهد هذا التاجر أن يعطيها أرباحا شهرية تساوى عشرين جنيا .

وتهلل وجهها ووافقت ، ثم لبسا ونزلا إلى طبيب أمراض النساء والولادة الذي أعطاها علاجا جديدا ، وسهرا بعد ذلك عند أحد المهرجين المشهورين فماتت الست بيه من الضحك ثم عادا بقلب لا يخالطه هم . وقال السيد أفندى وهما يأخذان سيارة أجرة إلى حي المالية آخر السهرة .
— أنا متعير .. لو لم تكوني في حياتي في هذه الفترة القائمة الحرجة فماذا كنت صنعت ؟

فربت على كتفه في هدوء ، كأنها تقول له : « لا تخش شيئا » .
وبعد أيام جاء التاجر الصديق ووقع عقد الاتفاق وشهد الزوج على ذلك ، ومرت أيام فجاءت أم إمام لتزورها وحين رأت الست بيه دقت على صدرها من المفاجأة قائلة : بسم الله الرحمن الرحيم .. والنبي عروسة بنت عشرين .
ماذا جرى في الدنيا ؟

مع أن أم إمام تعلم ماذا جرى في الدنيا وماذا جرى في الآخرة أيضا . وقد علمت بما عمله ابنها، لكنها لم تحك لها عنه إلا بعد أن أخذت المنح والهدايا،

فقالت لها قبل أن تهبط السلم :

— ولما دق الباب فتحت له أخته فدخل مسرعا كما هي العادة ،
كالحصان ، لكنه وجد أن أثاث الشقة غريب على ناظره ، فعاد ينظر حوله ،
وسأل أخته قائلا : ماذا جرى ؟ فلما لم ترد عليه ، أخذ يصرخ ويشد شعره
ويقول : تزوجت ؟ .. تزوجت ؟ .. تزوجت ؟ .. دلوني على مسكنها .
فهمست له أخته بكلمتين اثنتين أعادتاه عقله إلى دماغه . لقد تزوجت رجلا
فاذا ذهبت إلى هناك فسيموت أحدا كما . فسكت . أراك بخير .

وحل ميعاد جنى الأرباح من المبلغ الذى وظفته الست بهية عند التاجر :
وفي عصر يوم دق الباب فاذا بالتاجر عند العتبة . وكان رجلا كاملا وقورا
يدل مظهره على أنه تاجر في زيه وساعة معصمه ذات السوار الذهبى ونعومة
كلامه ومهارة حديثه . وأدخلته الست ، وقدمت له القهوة وأخذت
العشرين جنيتها ووقعت على الإيصال ... ونزل الرجل بكل احترام ، وخفق
قلب بهية لسر كل شيء فى الطريق القويم : زوج محب ، وتجارة مربحة
بلا تعب ، وعذول غائب ، وضرة مريضة ، وأولاد ضرة يعبدون زوجة
الأب ، ونهار كله انشغال باستقبال الليل فيا لها من حياة !

ولما عاد السيد أفندى من السهرة أخبرته الست بهية زوجته بأنها جنت أول
بشائر الربح فقد جاء ...

فقاطعها ووجهه محقق بالدم سائلا :

— من هو ؟

قالت فى ارتباك :

— أنت تعرف من هو .

فاستطرد فى غضب :

— ودخل بيتي وأنا غائب يا ليلة سودة ! هل نسيت ما قلته لك قبل أن
تدخل الفأس في الرأس ، هل نسيت ؟
ورفع عقيرته وهو يرتعد : هل نسيت ؟ ألم أقل لك إننى شديد الغيرة إلى
درجة الجنون ، لقد كنت أخاف على زوجتى الفيلة المريضة من عيون الناس ،
أنا رجل ، أنا لست جزارا أعرض لحم زوجتى على الناس ، والله العظيم ما أنا
بأيت فيه ..

وقام يلبس معرضا عن استرضائها ، وخرج وصفق الباب .
وسهرت الست بهية في ظلام حجرة ، ولم توقد المصابيح كما فعلت في
البيت القديم وتتركها تهتز مع الهواء ، بل جلست في الظلام تعد نجوم الليل ،
وبكت على حافة الشباك . وبكت في الفراش ، وتقلب طول الليل فلم يبق
لها في الحياة سواه .

ولم يعد في اليوم الثانى ولا الثالث ولا الرابع ، وهمت أن تذهب إليه في
الديوان فخافت من الأخطاء الجديدة . ودق الباب عصر يوم فرأت الفتاة
اللطيفة ... بنته قبيلتها . وشمّت فيها رائحة أبيها المحبوب ، وجلست البنت
الطيبة مطرقة إلى الأرض تعبث بالمنديل الصغير ولا تتكلم . وقالت لها بهية :
— كيف حال والدك ؟

— مرتفع الحرارة منذ أربعة أيام ، ولا يستطيع أحد أن يكلمه ، وقد بعثنى
إليك لأرى إذا كنت محتاجة شيئا ؟

فوارت السيدة دموعها عن الفتاة ، وقامت في صمت فأحضرت لها
حقيية يد لطيفة وأعطتها بعض المال لها هي وقالت لها :
— أخبريه أننى قلقة عليه .

ثم قبلتها في حنان وودعتها حتى السلم .
وبعد عشرة أيام جاء الفرج ، وكان متمثلا في دقة السيد أفندى على الباب
وارتمت المرأة في أحضانه وأجهشت بالبكاء كأنها انتشلت حيا قبل أن يأخذه
الموج . وجلسا يتعائبان . فلما اتهمته بالقسوة قال في ثقة وتأييب وعتاب :
— لا بل أنت تهميننى فلو كنت غير محب لك ما حدث هذا كله .

وعاد نور الليل وضياء الحياة من جديد ، ونسيت الست آلام الأيام
الماضية ، وفي الصباح حملت في التجمعات والصبغة الباهتة ، وأحسست أنها
أصبحت بهوس الحياة ، لكنها كانت مركزة كل أفكارها في هذا الرجل الذى
أحبته .

ولكيلا يحدث اختلاف من جديد جعلته وكيلا رسميا في أخذ العشرين
جنيها كل شهر ، وتخلصت من كثير من حلها لتوفر الراحة في البيت .

ثم لاذ السيد أفندى بالصمت بعد أن أصبح وكيلا في أخذ المبلغ فلم يقل
لها شيئا . بل كان يلوح بين حين وحين أن الإنسان كثيرا ما يأكل الميتة إذا كان
مضطرا ، وأن كل قرش يدخل ذمته من حسابها مكتوب محسوب . ونسى
السيد أفندى الموظف في وزارة التموين أن مئونة البيت كانت عبئا على الست
بيهة التى كانت تأخذ من نقودها الباقية لتملأ له الخزن بالخيرات .

على أن الست بيهة ركبها الوسوس بعد مرور عام ، بعد أن نسي الناس
قصتها ، وفترت حماسة اللام والموافق ، وكان السيد أفندى غائبا عن البيت .
فأخذت تفرض أن الأمور سارت هكذا ... هكذا حتى يضيع كل شيء ، ثم
لخلاف من الخلافات التى تحدث ينفصل كل منهما عن الآخر فماذا يكون
المصير ؟

ومصممت بشفتها وهى منفردة ، فسمعت صوت شفتها ثم قالت

في نفسها : إننى حتى اليوم لم أذق طعامه . كل ما أنفق كان من مالى ، فهل من الضروري لنعيش عيشة صحيحة أن تموت زوجته ؟ وعزمت على أن تقول شيئا ما عندما يعود . أن تسجل أى اعتراض لالشيء إلا لتنجو من ملامة نفسها لنفسها إذا كان لا سمح الله هناك مستقبل مظلم . وحدث ذلك ذات ليلة . فقد جمعت الست بهية شجاعتها وقالت له : — أنا لست أعرف لحياتنا المالية أولا من آخر . ماذا سنعمل (ومصلحتنا واحدة طبعا) إذا أردنا أن نشترى بيتا أو قطعة من الأرض .. ؟ أنا .. فانفجر البركان . لكن قبل أن ينفجر ركز عليها عينيه اللئيمتين لمدة دقيقة وكأنه يقول لها : هكذا اتن ... ما كنت أنتظر منك ذلك . ثم انفجر يقول :

— هل من الضروري أن تعلمى علاقتى بكل الناس ؟ . كنت شريكا لأحد التجار بطريقة من الطرق لأن ذلك ممنوع على الموظفين . وفي الوقت المناسب سترين أن المبالغ التافهة التى دخلت في ذمتى لا قيمة لها . هل تظنين أننى معتمد في حياتى على الوظيفة فقط ؟! لو كان ذلك لرأيت بناتى يتسولن عند جامع السيدة ، و ...

وكانت السيدة بهية مقتنعة قبل أن تقتنع . كانت تريد أى كلمة تتركها عليها مثل الغريق الذى يبحث عن القشة . فهمت بالاعتذار له لكن الزمام كان قد أفلت حين قام واقفا وقال بحركة مسرحية رائعة : — أنا لا أستطيع أن أفهم مما قلته لى يا ستى إلا معنى واحدا ...

— هو ؟

— هو أننى رجل يعيش على أموال النساء وهذا شيء أفضل عليه الموت اختناقا . سلام عليكم .

ولبس حلتته وخرج .

وطالت الغيبة ، واشتدت الوحشة على الست حتى كادت تخنقها . وبعد شهر أو يزيد دق الباب فهرولت تتعثر في خطواتها وأحست أن نبض قلبها نبض مرض لا نبض حب ، وعلى الباب وجدت بنته اللطيفة .

وجلست مطرقة في أدب ولم تنبس ثيبت شفة . حتى سألتها الست عن صحة أيها فقالت الفتاة وفي عينيها دموع :

— هل أنتما مختلفان يا طانت ؟

— نعم يا حبيبتى .

— ليتك أمى ! لو كنت أستطيع أن أناقش أى لاشتبكت معه فى عراقك من أجلك .

وسكنت لحظة ثم قالت :

— وأنه قد أرسلنى لأرى ما إذا كنت محتاجة لأى طلب .

— شكرا يا حبيبتى . قولى له إتنى مريضة ، وأريد أن أذهب إلى طبييين ... واحد يعرفه ، والثانى لم يعرفه حتى الآن .

ومنحتها هدية مناسبة وودعتها حتى الباب .

وقبل منتصف الليل حين كان القلق والوحدة يمزقان نفس الست دق الباب فقامت خائفة ، لكنها وجدته هو .. هو بلحمه ودمه . ووقف فى الصلاة تحت المصباح تماما وقال لها باختصار جاد لكنه يشى بالحب :

— هل أنت حقيقة مريضة ؟

فنظرت إلى وجهه وهى تلتصق فيه قائلة :

— هل أنت مهم بى ... هل أنت مهم بى ؟ ..

وعندئذ جلس ساهما واضعا كفه على جبهته كمن يحل لغزا ، ثم قام

في صمت .. إلى حيث خلع ملابسه ، وبات في مخدعه حتى الصباح .
وبعد هذه الحادثة لم يعد التحدث في شئون المال أمرا هينا بالنسبة لها ،
فضلا عن أنها تحس نحوه بالحب . وإذا حاول خاطر سيئ أن يناوش قلبها
طرده بسرعة ، كما تدفن النعامة رأسها في الرمل .

ومرت الأيام .. ولم تنجب ولدا ولا بنتا .. وضاعت النقود والذهب
وبقية الحسن . وخذت أنفاس لافحة كانت تحسها من زوجها ... ربما بفعل
الأيام ، لكنها عزت سر ذلك إلى غروب الحياة فيها ، فحاولت بكل جهد أن
تحافظ على التوازن كما يؤخر الطيب وقت الاحتضار بحقنة الكافور .

وعادة تأتي أمثال هذه المحاولات بنتائج عكسية ، تثير الرثاء في قلب
الرجال ، لكن الست بهية كانت تتقل من محاولة إلى أخرى ، بطريقة
لا تعرف اليأس .. كأنها ... ليست زوجة .

وتراجع كل شيء حولها . تراجع الحب ، وتراجع الإيراد وتراجع الباقي
من العمر ، غير الأشياء التي ضاعت ، وكان أهمها معاشها الذي كان كفيلا
بأن يصون كرامتها حتى تموت .

وأحست الست بهية بحسرة صامتة ، وخوف من نوع جديد لا تجرؤ على
أن تبوح به لأحد إلا للشخص ذاته الذي تخاف منه . للسيد أفندي المصري
زوجها .

وفي مساء إحدى الليالي كان الزوجان في الخارج ، وكانت الزوجة واقفة
عند باب إحدى الصيدليات وهو في الداخل بانتظار إحضار دواء . ومرة
على الست بهية امرأة تعرفها . اندفعت كل منهما نحو صاحبها تقبلها ، فقد
كانتا تلتقيان أول كل شهر في خزانة المعاشات .

وقالت السيدة للست بهية :

— علمت أنك تزوجت فهل أنت سعيدة ؟
فهمست تشير إلى زوجها الواقف على مقربة منهما :
عندئذ بدت الدهشة على وجه السيدة الأخرى وقالت وهى تكاد تجرى :
— عرفته ... إنه ... أليس هو ذلك الموظف بوزارة التموين ؟ كان
المفروض أن أكون أنا مكانك عنده ... فهو متخصص في الإيقاع بالأرامل
اللاقى بملكن شيئا ...

وجرت السيدة كأنما قبل أن يصيبها مكروه .
وفي هذه الليلة باتت كلمات الحب في نظرها أشبه بأقراص الشمع الخالية
من العسل ، وسمعتة يحدثها عن أرضها في الريف وأن المساكن في المدينة
أصبحت أحسن ما يستغل فيه المال .
ووقف الحديث عند هذا الحد .

وخرج السيد أفندى المصرى صباحا ، وذهب إلى مكتبه في وزارة
التموين ، ولبست الست بيهة ملابسها وخرجت في شجاعة ، وركبت .. ثم
نزلت .. ثم طرقت باب الشقة في حى وطنى ملء بالأقذار ، وفتحت الباب
امرأة ذات سنة ذهبية قد لفت على عتقها منديلا أحمر اللون كأنها مريضة
باللوز وحملت فيها المرأة واعترضت سبيل دخولها ، لكن الست بيهة دخلت
إلى الصالة ، عندئذ وقع نظرها على كل شيء خصوصا على تلك الفتاة اللطيفة
بنت الستة عشر عاما ، التى كانت قطعة حقيقية من والدها السيد أفندى ،
وجاءت البنت تضحك وارتفعت ضحكات المرأة الأخرى ، ولما سألت بيهة
بسذاجة :

— أين زوجة سيد أفندى ؟
قالت لها المرأة بصوت على الدرجة كأنه صراخ :

.. أنا يا أختي ... ولا مش قد المقام .. أعمل لك قهوة ولا ينسون
ولا حلبة ...

وكانت واقفة تترقص ، فقامت الست بهية في صمت لتنزل السلم
وانتظرت في البيت وقالت له :

— عرفت كل شيء فقد كنت في زيارة بيتكم .

فقهقه كأنه سمع نكتة ، وقال وهو يصفق :

— وهل كان من الضروري أن أكون زوجا لفيلة حتى تكوني راضية عني

وعن ضرتك ؟ ، ها أنت قد رأيت أنك خير منها .

ثم غضب قائلا :

— ومع ذلك من أذن لك أن تفعل هذا ؟ .. لقد بدأت تشيرين المتاعب

في طريقى . وداعا .

ولم تسمع إلا صفقة الباب .

ودخل الليل وهي تفكر . كانت النجوم ساطعة في ليلة خريف والشباك
مفتوح ، والجو مائل إلى البرودة ، وهي جالسة في الظلام تبحث عن أول
الطريق . سيتذكر اللائم لومه وسيندم المتحمس على ما فعل . وأخذت تبحث
عن العلة في نفسها فوصلت إلى أن « الساذج أو الطيب القلب إذا كان راغبا
في شيء ما رغبة شديدة فإنه لا بد أن يلقي مصيرا لا يرضيه » .

أين السكن القديم ؟ .. أين المعاش ؟ .. لكن الحمد لله فهناك إيراد
الأرض . أما التاجر فقد توقف عن الدفع منذ دب الخلاف وإن أخذت من
زوجها حقا في قبض المبلغ . وهل هناك ألف جنيه تعطى عشرين جنيها في
الشهر ؟ .

لقد كان قرضا بسدد على أقساط أخذها الزوج نفسه وكانت أم إمام
(الضفيرة السوداء)

شريكة في الخديعة ، فقد باعت هذه السيدة التي أكرمتها كما يباع لحم البقرة
الحلوب إذا وقعت تحت السكين .

و ذات ليلة بعد أن هجع الناس وقفت سيارة تحمل بقايا متاع .. وخلفها
امرأة مهذمة هي الست بيهة . ولما طرقت باب المسكن القديم ورأت ابنتها
نفسها أمام الأمر الواقع ، دخل كل شيء في صمت كما يزاح التابوت
بلا بكاء .

وانزوت المرأة في إحدى الحجرات وقبل أن تقفل عليها بابها سألت :

— ماذا ستفعلون لي ؟

فقالت البنت في هدوء :

— وهل ترك الزمن شيئا يمكن أن يفعل معك حتى نفعله نحن ؟ ..

استريحى فإن التعب ياد عليك .

الضفيرة السوداء

الجنينة الكبرى وحدها التى بقيت ... أما المبنى الذى كان قائما فى وسطها فقد هدم .. ولا تزال بقايا الجدران بين الأشجار أطلالا توحى بالتغير ، والشبابيك والأبواب ذات الشراعات مخلوعة ومسندة إلى نخيل الزينة ، تنتظر عربات النقل التى ستحملها لتباع فى الريف ...

وغاب عن البوابة الحديدية السوداء حارسها الضخم ، وفتحت فى السور فجوات دخل منها صبيان الحى الوطنى القريب إلى أرض الحديقة ...

وبينا كان أحد الصبية يحلم بأن تكون أسرته ضمن سكان البيوت التى ستبنى على أرض الجنينة ، كانت فتاة قد تجاوزت الرابعة والعشرين من عمرها تنظر إلى هذه المعالم ، وقد جلست على شاطئ النيل .. الشاطئ الآخر .. تحت إحدى الأشجار الضخمة التى تظلل سوره المنحوت من الحجر الأبيض . وكان الوقت أصيلا ، والشمس قد اختفت وراء الأشجار ، والفصل خريف . وعند أقدامها تساقطت أوراق انقضى عمرها .. ومع صوت ناي انبعث من الراديو عبر الشارع أرسلت الأنسة تنهبا عميقا .. فقد كانت تتذكر .. طالما لعبت فى هذه الحديقة .. مرات لا تحصى . وكانت فى العاشرة من عمرها ، وكان جسمها النامى فى هذه السن يوحى للكف أن تمتد إليها ، كأنما لتلمس شيئا على . وشك أن ينضج قبل الأوان ، وكانت صغيرتها السوداء ، وفستانها القصير ، وشفتها المكتنزة مع فمها الصغير ، ولسونها الزاهى ، وحواجبها الوحشية التى تشبه حواجب الصبيان — كان هذا كله ماثرا لاهتمام الناس . وتذكرت يوم كانت تعبر أحد ممرات هذا المسكن ،

وإذا بها تفاجأ بمنظر فتاة في مثل عمرها .. ظهرت فجأة .. وفي طرفة عين
أحسست هي بذعر وذهول لجمالها ، وأخيرا يا للعجب .. كل هذا في طرفة
عين .. ثم ما لبثت أن استغرقت في الضحك .. لأنها اكتشفت أنها وحدها في
المر .. وأن الصورة التي لمحت لها فجأة ، كانت خيالها في إحدى مرايا البهو .
ومنذ ذلك اليوم أحست أنها جميلة ..

ولم يكن هذا بيتها ..
كل ما في الأمر .. أن أمها كانت فيه ..
ومن تكون أمها ؟

إنها امرأة يحفظ بها في هذا المكان على سبيل التذكار بعد أن تحولت من
مربية إلى رئيسة خدم . فقد ربت لهذه الأسرة بنتا وولدا . أما البنت فقد
تزوجت «آه .. تزوجت » .

ووقفت أفكار الأنسة عند هذا برهة صغيرة .. كانت الشجرة تخشخش
فوق رأسها بأوراق بعضها غص ، وبعضها يابس ، واثنان من الشبان يعلو
نقاشهما على خشخشة الورق ، يتكلمان عن الفيضان العالي .. وافتتاح
المدارس .. والحب .. وأشياء أخرى لم تدرك معناها ..
ثم عادت الأنسة إلى حيث وقفت أفكارها ...

نعم تزوجت .. كانت سمراء ، جافة العود ، ذات شعر كثيف لا يطول
أبدا . لقد طالما شدتها من ضفيريها ، وقالت لها وهي تعض أسنانها : « هاتي
هذه الضفيرة يا سميرة .. هاتيها لي .. آخ » ، وتمنت في هذا الوقت لو أعطتها
الضفيرة ، لأنها حتما سينمو لها غيرها . وتزوجت شايا كأنه البدر .. رأتهما
سائرين في الحديقة معا ، هو يمس لها ، وهي تصرخ في وجهه ، والدم يكاد
ينبثق من أذنيه وخديه ورقبته ..

« كل هذا لا يهم .. نعم .. » وسألت نفسها : « أهو غير مهم لأنه مضى ؟ . ولكن كيف ؟ .. وهل مضى الحوادث يخرجها من دوائر الأهمية ؟ » .

وهزت رأسها بالنفي ، ولملت مصابيح الشاطئ الآخر قبل نزول الظلام . وكأنما طاب للآنسة أن تتخيل مواقع الحجرات التي عرفت في هذا البيت ، الذي سيتحول إلى بيوت .. إلى ثلاثين على الأقل .. وكل بيت من عدة طوابق .. وكل طابق فيه عدة أسر .. « لكن .. آه .. لم يكن في هذا البيت غير أربعة أفراد غير أمها المربية . نعم . كانت السيدة الأم تقيم في هذه الناحية حيث تستطيع وهي في الحجرة العليا . أن ترى لسان الجزيرة حيث يتسع النيل في أبهة وخلود . نعم .. وطالما جلست تحت شجرة تنظر في الساعة لتضبط ميعاد تناول الدواء . أما السيد الأب فقد كان يقيم هنا .. هنا .. حجراته تطل على نخل الزينة ذى السيقان التي كأنها صبت من الرخام » .

وتذكرت الآنسة أنها سألت البواب يوما عن نوع البلح الذي يشمره هذا النخل ، فضحك وقال لها وهو يمز رأسه : إنه لا يشمر .. إنه لا يشمر .. (ثم استطرد) نخل البلح في الحقول يا سميرة .

وخيل إليها أنها تسمع صوته ، وقبل أن تغيب نبرته الغليظة عن خيالها سألت نفسها « ترى أين هو الآن ؟ » .



نعم .. طالما لعبت في هذه الحديقة . وكانت قبل أن تنزل إليها تحس بقرصة شديدة في أذنها من يد أمها .. فتتظر سميرة إلى وجه الأم فتجد الطيبة والوداعة قد غابت عن بشرتها البيضاء ، ولبس وجهها صرامة وجه الحارس وهي

تقول لها في همس وطرف أذنها لا يزال بين أصبعي أمها :

... سميرة .. احذرى .. فاهمة ؟

كانت في الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الوقت ، وكانت تأتى لزيارة أمها .. تأتى من البساتين حيث تقيم مع جدتها لأُمها وخالها الموظف .

وعندما كانت تنزل إلى الحديقة كانت تسير وهي نصف مغمضة .. أحلام الصبايا تثقل عواطفها مع شئ آخر .. هو في الواقع سؤال عن سر تعاسة الوجوه التى تراها في هذا البيت .. إنهم ينادون على الناس بالصراخ ، وعلى ملاحظهم قلق لا يرح . وحتى الشابة التى تزوجت وتمت في اليوم السابق لزفافها أن تأخذ مع الجهاز صغيرة سميرة كانت تصرخ في وجه زوجها .

« لكن .. آه .. لماذا تحذرنى أمى باستمرار ..؟ إنها خائفة على من شيرين .. مع أنه يبدو شابا طيبا .. وماذا عسى أن يصنع لو أنه التقى بى يوما ما ؟ » .
لقد ألقت على نفسها هذا السؤال منذ عشرة أعوام قبل أن يهدم هذا البناء ، وتستعد الأشجار لإخلاء مكانها للسكان .

كان اليوم يوم جمعة .. لقد ظلت تذكره .. يوم جاءت سميرة للقاء أمها ، لتحمل إليها أنباء جدتها المريضة ..

وكانت في الحديقة تمشى كعادتها وتسال نفسها الأسئلة الخالدة : « لماذا يصرخون في وجوه الناس هكذا ؟ » .

ومن خلال هذا السؤال سمعت همسا آتيا من إحدى الخمائل ، فانتفضت وتلفتت حولها ، كان شيرين أمامها وجهها لوجه بعد أن ظهر من خلال الأشجار ، فرفعت يدها بطريقة لا إرادة فيها وأهوت بها على .. على أذنها .. كأنما لتدفع ألم قرصة حاده شعرت بها لتوها ، وأحمر وجهها حتى صار في لون الشفق في الوقت الذى كانت ابتسامة ذات معنى تولد تحت الشارب الوليد :

— لماذا أنت خائفة .. هل أنا مخيف ؟
وهزت رأسها بالنفى ولم تتكلم . وهمت أن تسير فأمسك بكفها ودنا منها
يقول بصوت يشى باضطراب النفس :
— لو أنك هذبت هذه الحواجب .. لأصبحت مثل حسان باريس ..
آه .

كانت هناك أذن تسمع من بعد غير شاسع ، صاحبها ضجرة تعيسة ،
وكانت هي أمه ..
كانت في نافذة غرفة الزينة توارى شحوب المرض والشيخوخة بألوان
وتذكر الشباب ومرحه والحب وسكره في الوقت الذى تنهى إليها همسه .
فأطلت من خلال الأغصان التى زحمت فتحة الشباك ، ونادت بأعلى
صوتها :

— شيرين .. شيرين .. إن والدك يبحث عنك .
وفي هذه اللحظة طفرت الدموع من عيني سميرة ، ولم تكن تدري هل
أنقذها القدر أم هل قد أساء إليها .. ؟ وتحول الشاب بلا مبالاة يدور حول
البناء ليصل إلى الباب ، ورأته من خلال دموعها كالأشياء بعد اليقظة من
الإغماء .

وتذكرت في وقتها الجامدة أشياء لا تحصى .. وانتقلت وخزات القرص
من غضاريف الأذن إلى شغاف القلب .. وأدركت في هذه اللحظة أنها كانت
موضع طمع .. كما كانت أخته تريد ضفيرة فكان هو يريد ما يشتهي الرجل .
ثم اجتهدت في كفكفة دمعها وكبت حزنها ، ودارت من باب آخر لتصعد إلى
أمها .

كان السلم مسقوفا ، على مسقطه جمالون من الزجاج السميك ، وفي

أعلى الحائط الغربى تحت الجمالون نافذة كبيرة من الزجاج الملون .. فيها كل ألوان الطيف . وكانت في هذه اللحظة ترمى كل الدرجات العليا بألوان زاهية مثل ريش الطاووس ، ولم تر منها سميرة إلا اللون القاتم .. وكان الجمالون ومسقط السلم يعكس مع ذلك شيئا آخر .. هو صوت السيدة ربة البيت .. كانت تصيح كما يصيح المنهوب مستنجدا ، وفي دهشة العجب خيل إلى الأنسة أنها في حلم ، لأن القصة التى حدثت في الحديقة كانت مثار ذكريات كلها أسمى . ومثار اتهامات وشبهات صبتها السيدة على وجه المربية .

كانت سميرة على آخر درجات السلم والصوت آت من البهو من أقرب مكان من الباب ، بحيث لو دخلت الفتاة لالتقت بالخصوم وكانت نبرات السيدة تخرج عالية رفيعة مرتعشة آخذة طريقها إلى الباب حيث يردد صداها مسقط السلم ، فيبدو الصوت لها جهورا عاليا ..

ثم سكت كل شيء فجأة ، واستطاعت الأنسة أن تعرف السبب ، فقد ظهرت أمها من الباب دامعة العين ، وهبطت دون أن تلقى على بنتها نظرة ، وتبعها الفتاة في صمت .. وكان هذا آخر عهدهم بهذا المكان قبل أن يهدم ..



وهذه حديقته تبدو أمام عينيها الليلة ، أشجارها واقفة في انتظار الفأس ، والنيل يتدفق في فيضان عال ، ونسيم الليل يخشخش بالأوراق كأنها جلاجل ، وبدأت زحمة الشاطئ تخف نوعا . وكان بين المصاييح على الشاطئ الثانى مصباح منطفيئ بين اثنين فاتسعت المسافة المرسومة بنظام هندسى ، فحملت فيه الأنسة وتذكرت أمها .

كانت منطفئة مثل هذا المصباح ليلة طردت من خدمة هذه الأسرة ،

ولم تستطع النظر إلى بنتها بعد أن وصلنا إلى البيت . وكانت تعليقات جدتها العجوز على الموقف غمغمة غير مفهومة ... تحمل أحيانا طابع الاتهام وأحيانا طابع البراءة . لكن اسم شيرين جاء خلال حديث الجدة .

وشهقت الفتاة وضافت بثرثرة العجوز ... هل حساب السنين (ودعنا من العلاقات الروحية بين الناس) لا يدخل عند بعض الناس في حساب الشهوات ؟

وتحول الموقف بين الفتاة وأمها إلى شيء لا يمكن أن يلمس إلى أن ماتت الأم بعد ذلك بخمسة شهور ، ودعتها الجدة وهي في مكانها لأنها لم تكن تستطيع النهوض ، ثم عاشت على ذكراها بضعة شهور .

وتذكرت سميرة وهي في مكانها على النيل تعد المصاييح المضاءة على الشاطئ الآخر . وتتوقف كلما مرت على المصباح المنطفئ — تذكرت ليلة قالت لها جدتها :

— ما أجمل شعرك يا سميرة .. كان لي مثله وأنا صغيرة .

فتأوهت الفتاة وذكرت أخت شيرين ، فقالت عمدا :

— كانت أخت شيرين تمنى أن يكون لها مثل شعري يا نينه ..

فأطرقت الجدة ونظرت في حجرها ، ثم استطردت تثرثر :

— شيرين !! آه .. لقد طرق هذا الأحق الباب في إحدى الليالي على مربية

أخواته ..

— ثم ..

— فتحت له أملك فدخل ، وعند ذلك .. ماذا تستطيع أى امرأة أن

تعمل ؟ الدفاع فضيحة ، والتسليم محنة ، فماذا تختارين لو كنت مكانها

يا سميرة ؟



أحلام الصبايا تثقل عواطفها مع شيء آخر

وسكتت الجدة ، وأخرجت من جيبتها سبحة ووضعت القهوة على موقد الكحول ولم تتكلم ، وأز الماء للغليان ببطء شديد وسميرة تفكر .. حقيقة ماذا كانت تستطيع أن تعمل ؟

وجاءها الحل من فم جدتها وهي تشرب رشقة من فنجال القهوة .
قالت له المريية بهلوه وهي تحبس دمعها : « أنتم لا تأتون إلينا . الواجب أن نذهب نحن إليكم .. اذهب إلى فراشك وسأبعثك » .
ثم أغلقت بابها من الداخل بعد أن خرج ، وسهرت ليلتها في البكاء والدعاء .

وفي اليوم التالي لم يلتق بها ، وفي نفس اليوم كانت المريية تفكر فيمن تشكو إليه شيرين . لكنها أحست أن الشكوى دفاع ، والدفاع عدوان في بعض المواقف فسكتت .

وفي المساء التالي لم تذق المريية طعم النوم . كانت كالمحكوم عليه بالإعدام وهو يفكر في ساعة التنفيذ ، يخافها ويشناق قدومها ليرتاح ..
وسمعت نقرا على الباب فكذبت أذنها ، وأخذت الأشجار تحف في الحديقة فقطى حفيفها على كل شيء . لكنها تسمع دقات قلبها ، وسكت النقر لحظة فتوقعت أن تسمع وقع أقدام تبعد ، لكن النقر أصبح أكثر ارتفاعا ، وتحول إلى دفع للباب . فقامت لتشعل النور ، ولكنها لم تجد .. نورا .
ومن خلال نافذة خلفية رأت الظلام مطبقا على كل شيء ، فقد انقطع التيار الكهربائي من الحى كله .

وعندما رأى الشاب هذا المنظر الكئيب زحف إليه الخوف واليأس ، فتسلل راجعا يلتمس طريقه محاذرا أن يسمع أحد وقع أقدامه .
وعند باب حجرته اصطدم في امرأة فأمسك بيدها وقال هامسا :

— هل جئت ؟ .. لماذا لم تجيئي ليلة أمس كما وعدت ؟
— كنت أحسب أن في حجرتك شمعة .. لكن لم أجده ولم أجد شيئاً .
وكان الصوت صوت أمه ، فدخل سريعا وأغلق عليه الباب ولم تعر الأم
الموضوع اهتماما .. نسيته في الصباح ، لأنه ابنها وليس زوجها !! نعم .. هذا
رأيها ووجهة نظرها . أما موقف ابنها مع الفتاة فإنه لا يخلو من خطر .. أليس
من الجائز أن تصبح زوجة له ؟

لكن الابن عدل عن مشروعه بعد هذه العثرة ، وإن ظلت أمه تحمل اعتقادا
خاطئا على مر الأيام .

وانتهت سميرة فجأة على أضواء ساطعة تلمع بين أشجار الحديقة ، كانت
منبعثة من ثلاثة كلوبات تتحرك خلال الشجر . وسمعت محركات سيارات
نقل .. وأصوات أنخشاب تنكدس . فعلمت أن الأوان قد آن لتحويل هذه
الجنينة إلى بيوت ، وشعرت أنها تستطيع أن تسكن هناك . لأن مرتبها ومرتب
خطيبها قادران على ذلك ..

فقامت تتمطى لأن الجلسة قد طالت ونسيم الليل قد خالطته البرودة ،
وكان في نفسها أمل .. أمل أن تطل نوافذها على لسان الجزيرة حيث يتسع
النيل هناك في أبهة وخلود . ومن نواحي « مقياس الروضة » تهب على القلب
نسمة جديدة .

عَنْدَا يَعُوْدُ

لم تكن تدري لماذا تذكرت الليلة الأولى التي رأيت فيها « سمير » ؟
كانت ليلة من ليالى الصيف مخنوقة الأنفاس شديدة الرطوبة . وكانت هي
وحدها في الشقة تلبس ثوبا خفيفا أبيض ، والخدمة ساعته كانت في
الحمام . ولما دق جرس الباب دقات عرفت فيها يد أخيها ، أسرعت تفتح .
كان برفقته شاب أنيق لم يجعله شدة حرارة الليلة يتخلى عن قطعة واحدة من
الملابس حتى رباط العنق .

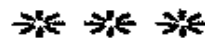
وحياها في هدوء قبل أن يدلف هو وأخوها إلى أقرب باب من مدخل
المسكن حيث تقع حجرتان صغيرتان ، إحداهما داخل الأخرى امتلأتا
بالكتب ، وقطع الأثاث والتحف ، وأسطوانات موسيقية تفرغ ألحانها تحت
أضواء ملونة تنبعث من مصابيح جانبية .

وتكررت النظرة ساعة الخروج بعد السهرة القصيرة التي قضاهما الشابان
معا ، وخرج « سمير » مخدر الأعصاب ، لين النظرة ، كأنما علق سحر
الموسيقى بأهداب عينيه السوداءوين .

والتقيا عند الباب مرة أخرى وكان ذلك بمحض المصادفة كانت وقفتهما في
فتحة الباب بالضبط تأخذ من البائع زبادة العشاء ، وقد عقصت شعرها إلى
أعلى من شدة الحر . وتراجعت في شيء من الارتباك لتفسح الطريق
للخارجين . وألقى عليها التحية ، فأحست أنها تشق الطريق نحو قلبها .
ونمت العلاقة بين الأسرتين بعد ذلك بقليل بعد أن كانت قاصرة على
الشايين فحسب . إذ لم تمض على هذا اللقاء عشرة أيام حتى حضر المهندس

« سمير » بصحبة أمه ، ورفرف جو من المودة على الضيوف بفضل أصحاب البيت الذين شعروا أن كلمة جميلة محبوبة ستخرج عما قريب من فم « سمير » يطلب بها يد « عنايات » من أخيها ..

وشغلت الفتاة بهذا الحلم ، وأحست بينها وبين نفسها أن شيئاً من القلق يشوب ليلها باستمرار إذا ما حضر « سمير » لزيارتهم يوماً ما . لكن قلبها الذى عانى كان يشعر أن شوطها لن يطول ، ولن يكون هناك عذاب ولا أرق ولا دموع من تلك التى يعانىها الناس فى صمت مذل ، كأنها جروح داخلية لا يشعر بالأمها إلا من يعانىها .



وأدارت « عنايات » ماكينة الخياطة لتفرغ من تجهيز ثوب صغير لطفلها الثانى ، وابتسمت لنفسها ، وهزت رأسها تتعجب : لماذا تذكرت القصة من أولها ؟ حتى لكأنها الليلة فى بيت أبيها ، وأمها المشلولة نائمة فى الحجرة الداخلية هناك على مقربة من الحمام ، وعيناها المنخورتان ضائعتا النظرة فى الشباك الخلفى المفتوح حيث تهتز أمام المريضة نخلة وحيدة تقطع عمرها فى سكون . وذكرت « عنايات » حجرة المكتبة حيث كان « سمير » يقطع جزءاً من الليل مع أخيها ، وحيث كانت تدخل بعد خروجهما ، فتفرغ منافض السجائر من الأعقاب وتقف برهة لتفرق بين النوع الذى يدخنه أخوها والنوع الذى يدخنه « سمير » . وذكرت الليلة التى ألت فيها بأمها إحدى الأزمات ، فحضر « سمير » عقب علمه ومعه طبيب مشهور كان من أصدقائه ، وعلى وجهه أمارات حزن ورغبة فى أن يهب أمها — من أجلها — أى شيء لتعيش ..

(الضفيرة السوداء)

وتوقفت أفكارها عندما بكى الطفل في الداخل ، فقامت لتعطيه من حنان الأم ، حتى إذا ما عاوده النوم رجعت إلى ماكينة الخياطة لتكمل عملها .
وامتلاً سمعها بالأزيز حتى تشبعت به ، فأحست بعد مدة كأنه خرير ماء ، أو لفظ موج مترادف ، وأنها سابحة فيه وكلما انقطع الأزيز ، أطبق عليها السكون وترادفت الأفكار واتضحت كأنها حروف لافتة كبيرة .



ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء على الرغم من الهدوء الذي نعيم على الضاحية ، وفتحت « عنايات » النافذة فرأت منظر الخريف في طبقات الجو وعلى رعوس مصاييح الشارع المنداة بالضباب ، وسمعت نسيم الخريف كذلك يثر في الأشجار ، فبقيت مطلة من شباكها العالى على هذا العالم الساكن ملقية ببصرها إلى الدراجات الكثيرة التى تدخل إلى الضاحية وعليها ناس قضا أوطارهم في المدينة .

ودقت ساعة على مقربة منها تعلن منتصف التاسعة فتذكرت « سمير » زوجها فتهتفت بما يشبه كلام الذين يحلمون :

— أسعد الله مساءه .. لقد وصل إلى بنى سويف منذ ساعة .. ولعله الآن في فراشه بعد أن تناول عشاءه في المطعم .. لقد أصبح « سمير » كثير الأسفار في المهمات الحكومية .. آه .. كان الله في عونته .. إنه يتعب .

وخيل إليها أنها تسمع بكاء في الداخل فتركت النافذة وتحركت نحو باب الحجرة فلما وجدت السكون مخيماً على المكان كما تركته رجعت إلى الشباك لتقطع الوقت .

ومن خلال غصون إحدى الأشجار كان أحد مصاييح الشارع يظهر



وقالت في نفسها « أسعد الله
مساءك .. ليتني معك يا حبيبي »

لعينها ويختفى كلما هبت نسيمات الليل فأخذت تتأمل المنظر ، ثم أحست بألم في ضلوعها فتذكرت سبيه .. ساعة احتواها زوجها بين ذراعيه بعنف قبل سفره بساعة فكاد يحطم ضلوعها .. ثم ودعته إلى الباب وهي تتألم ، وأسرعت إلى النافذة — التي تقف الآن فيها — ورأته وهو يعبر الشارع . وانسربت دمعة على خدها حين رأته يثلفت نحو مسكنه وهو عند المنعطف قبل أن يغيب عن بصرها فكأنما أحس قلبه أنها في الشباك . وعادت تهمس بما يشبه كلام الذين يحلمون :

« ليتنى معه » وتحسست أضلاعها حيث تشعر بشيء من الألم .



ثم نشط النسيم بشكل ملحوظ فأخذ يلوى غصون الشجر وينثر أوراقها على الأرض ، وبدا الليل أكثر سكونا عندما سرت فيه برودة كأنها سبقت فصل الشتاء فأقفلت « عنايات » نافذتها وتحركت إلى الداخل تفكر في طريقة تقطع بها السهرة .

لكن التفكير لم يطل بها ، فقد سمعت جرس الباب يدق ، فشعرت ببهجة طارئة إذ توقعت أن إحدى صديقاتها جاءت إلى الضاحية في زيارة ما ، فخرجت عليها كما هي العادة ، وستسارع « عنايات » إلى اتهامها بأنها لم تتكلف من أجلها تعباً خصوصياً ، وذلك لتأخذ منها وعداً بزيارة جديدة . لكن ظنها خاب حين رأت على بابها رجلاً عرفته من أول وهلة ، ولما سأل عن « سمير » دارت برأسها أفكار كثيرة ، كل فكرة منها قادرة وحدها على أن تختم على فمها فلا تتكلم . لكنها لم تجب عن سؤاله بل سارعت بمهارة وضبط نفس ففتحت له الصالون واستقبلته .

إنه الباشمهندس « حسن بك » رئيس سمير في المصلحة .. رجل يخطو إلى

الخمسين لكنه قوى سليم متصاب شره النظرات . التقت به للمرة الأولى منذ سنة في عقد قران ابنته ، وقد أولاها من العناية ما جعلها تضيق به ، وتفر من عينيه اللتين لم يجب فيهما بريق الرغبة على الرغم من التفاختين اللتين نجمتا تحتها كأنتهما لوزتان .

وتركته في الصالون يتلفت حوله حتى ارتدت « الروب » وأخذت شيئا من الزينة ، وكان قلبها يدق في عنف ، وشعرت بريقها يجف وهي تقدم له قدحا من القهوة .

كانت تريد أن تعرف اللغز ما دامت المشكلة هي التي طرقت عليها الباب بنفسها ، ولما أحس الزائر أن رائحة رب البيت غائبة عن البيت تكلم ليعل حضوره من غير ميعاد فلم يكن عنده إلا السبب المشهور الذى يقوله سكان المدينة إذا ما زاروا سكان الضاحية البعيدة بلا ميعاد سابق ، وهو نفس السبب الذى دار برأسها وهي ذاهبة لتفتح الباب ظانة أن الطارق إحدى صديقاتها . قال حسن بك في زهو خلطه بشئ من التواضع :

— أنا آسف إذ مررت بلا ميعاد .. فقد كنت هنا ..

ولم تتركه السيدة يكمل كلامه ، فابتسمت تشكره حتى على هذا التنازل وأفهمته أنهم يقنعون منه بهذا القليل . وكان عليها أن تفهم دون أن تشعر الضيف ، هل هو يعلم بسفر زوجها أو لا يعلم ؟ .. ثم .. كيف يتأتى ألا يعلم بسفره وهو رئيسه وبإمضائه توقع استمارات القطارات ؟ وهناك احتمال آخر لكنه يبعد بعد المريح ، وهو أن يكون « سمير » كاذبا ، وأنه سيقضى ليلته هذه في مكان رأى حتما ألا تعلم زوجته به .. وماذا عسى أن يكون الموضع الذى يخفيه الرجال عن زوجاتهم ؟ إنه موضع واحد ..

غير كريم على كل حال .

قالت السيدة « عنايات » تخاطب الضيف :

— أرجو ألا تفرغ من شرب القهوة حتى ...

وسكنت عمدا ليكمل هو بما عنده . فأسرع يقول :

— حتى يكون سمير قد عاد من الخارج ...

وشرب آخر جرعة من الفنجال ، ووضع على المنضدة في الوقت الذي

أحست فيه « عنايات » أن خنجرا أغمد في صدرها . ولم ترد على الضيف ،

وبحثت عن ريقها فلم تجده . ووضع « حسن بك » رجلا على رجل يحملق

في نقوش السقف وهو يقول :

— آه .. أين زمان هذه المباني يا عنايات هاتم ؟ .. لقد انقضى عصر

الرخاء وبقيت مبانيه .. أين ذهب الولد سمير ؟ (وابتسم مداعبا) .. إنه

زائف العينين فلا تغترى بكلامه .. هل زعم لك أنه مدعو في فرح مثلا ؟ ..

يجب أن تحققى معه بعد ما يعود ..

وضحك .

ونظر إليها فإذا رعدة تمشي في شفتيها ، وإذا شحوب يلون وجهها ،

فتذكر كلامه ذا المعاني والاحتمالات الذي كان يلقيه على سمعها كلما لقيها

ومنذ عرفها في عقد قران ابنته . فحملق في وجهها وهز رأسه ثم سألها :

— لماذا لا تتكلمين .. هل تحسين بصداق ؟ .. أنا شخصيا أحس بصداق

فهل عندك قرص من الأسيرين ؟

وقامت تتأود وأتبعها بصره ولما تركت الحجرة لتبحث عن قرص مسكن

كان الغيظ قد بلغ منتهاه ، وأحست بحاجة ماسة إلى الدموع لكنها تذكرت

أن رجلا غريبا في حجرة الصالون ، فكظمت غيظها ، ثم سألت نفسها
سؤالا عابرا وتركت جوابه معلقا : « إن سمير الآن مع امرأة أخرى ، ليس
هناك شك في ذلك ، وإلا ... ماذا عسى أن يكون قد كتمه عني . إن وداعه
المنافق كان حارا لأنه يغطي على جرمه مقدما . آه .. لماذا لا أبيع لنفسي ما قد
أباحه لنفسه ؟ .. » .

ثم دخلت إلى الصالون ومعها قرص المسكن ، فوجدت الرجل ما زال
معلقا في السقف ، وبعد أن ابتلع القرص عاد يقول :
— إن الذي رسم هذا السقف فنان .. ألم تلاحظي هذه العرائس العارية
التي ترقص ومعها المزاهر ؟

فأجابت وهي تعض على شفتيها :

— لقد لا حظت كل شيء .

فرد يسأها بلهجة ذات معنى :

— كل شيء ؟ .. كل شيء ؟ صحيح كل شيء ؟ .

فأومأت برأسها وقد لذ لها بطبيعة حواء أن تستقصي كل ما عنده :

— نعم .. نعم .

فقال وهو يتهد :

— هل تعرفين حقيقة غريبة .. هي .. أنني وأنا في شبابه تعلقت بفتاة

عظيمة تشبهك ، وقد تزوجت رجلا غريبا ؟

وتهد ، ثم ضيق عينيه ، وهو ينظر إليها ، فانسريت من بين أهدابه نظرات

لم ترض عنها ، لكنها أجابت على البداة :

— هذه حقيقة غريبة .. لكن يا عمي (ورفعت صوتها) لا أستغرب

أى شىء ففيها العجائب .

وعندئذ فتر الموقف وأحس الرجل أنه أهين . رفع معصمه الأيسر ينظر في الساعة بحركة لا دخل للإرادة فيها ثم قال لفوره :

— يظهر أن « سمير » سيتأخر .. ألا تعرفين أين هو الآن ؟

— قال لى إنه ذاهب ليعزى أحد أصدقائه فى أبيه .

فأكمل مداعبا وهو ينهض للخروج :

— إذن فلا تقلقى عليه فربما يذهب إلى المسرح بعد انقضاء العزاء .



ولما أقفلت وراءه الباب ، وأطبقت عليها الوحدة ، أخذت تجول فى أرجاء المسكن كأنها تفتش فيه عن « سمير » ، ثم عادت إلى النافذة حيث وقفت تبكى فى صمت ، وكان نسيم الخريف يلوى شعور الشجر والمصباح المعهود يظهر من خلال الغصون ثم يختفى .

وعاودها السؤال الخطير : لماذا لا أخون رجلا خائنى فى اللحظة التى سنحت لى فيها الفرصة ؟

وحملت رأسها بين كفيها تنتظر الجواب ، ولما لم يأتها الرد أكدت لنفسها أنها مستجبر زوجها على الإجابة عن سؤال عجزت عن الإجابة عليه .. عندما يعود غدا فتستقبله وقد لبست ثياب التمثيل متجاهلة كل شىء ، ثم تفاجئته بالأمر .. بأمر الباشمهندس « حسن بك » الذى كان فى بيته الليلة .

وعندما ينكشف القناع ويعترف « سمير » بكبوته ، ستبكى هى بدلا منه .. إنها لا تستطيع أن تفعل إلا ما يوحى به طبعها .. إنها لا تستطيع أن تغشه حتى ولو كان غشاشا ، ستظهره بدمعها وتجبره على أن يتوب ...

وانتصف الليل وهى لا تزال فى مكانها من النافذة ، فلما أحست برودة الجو ، دخلت إلى فراشها ، وظلت طول ليلتها تحلم . مرة تعاتبه ومرة تخاصمه ، ومرة تحلم أنها تخنق امرأة مجهولة بشعرها الطويل . حتى إذا ما أصبح الصباح نهضت وكأنها مريضة . وحدثها نفسها أن تطلبه بالتليفون فى عمله ، فهو ولا شك هناك ، وربما أخبره « حسن بك » بالأمر . لكنها آثرت أن تلقاه وجها لوجه .

وفى منتصف الساعة الثالثة — وهو ميعاد عودته — دق الجرس فذهبت تفتح الباب وقد لبست قناع التمثيل .. إنها تريد أن تعبث به كما عبث بها وستعذبه ثم تأكله كما تفعل الهرة بالفأر .

وانفرج الباب عن وجه أحد عساكر البوليس يحمل إليها خيرا .. هو أن المدعو « سمير » قد وجد قتيلا فى حادث تصادم على الطريق الصحراوى فى سيارته مع زوجته . فسألته وهى تدق صدرها :

— مع زوجته ؟

وبكت « عنايات » كثيرا . بكّت على أشياء لا تخصى : على أنها عاشت مخدوعة ، وأنها فقدت رجلا كان أشبه بالسوار الماسى الذى لم يعرف الناس أنه زائف إلا يوم أن ضاع ، أما أعز شىء بكّت عليه فهو أن القضاء لم يتح لها فرصة أخيرة لتثبت له أنها لم تخدعه حتى بعد أن أيقنت أنه خدعها .

وعندما فطنت « عنايات » إلى هذه القضية الأخيرة تحيرت .. فهل ظلت تحبه بعد كل الذى حدث ؟ .. ربما .

عَا طِلَّ بِالْوَرَاثَةِ

كان ذلك منذ عشرين عاما ..

أيام كان أبى موظفا فى أحد المراكز ، ووالدا خمسة أبناء كنت أنا أكبرهم ، وكنت شديد الإعجاب به ، شديد الحب له ، منذ تفتحت عيناي على الدنيا .

وكنت أعتقد وأنا صغير أنه ليس على وجه الأرض رجل أعظم من أبى ، ولا أغنى من أبى ، ولا أرق قلبا من أبى .. حتى إذا ما بلغت الثامنة من عمرى وألحقت بالمدرسة الابتدائية بالمركز ، أدركت أن هناك رجالا كثيرين أعظم من أبى ، وأغنى من أبى ، وبقي الشطر الأخير من القضية فى ذهنى سليما لم يمس . ولم يتغير ، فإن رقة قلب أبى وحنانه ظلت موضع إعجابى على مر السنين .

كانت أعماله الوظيفية فى المركز لا تقتضى عودته بعد الظهر ، لأنه كان يشغل إحدى الوظائف الكتابية ، ولذلك فإنه كان يلزم بيته منذ هبوط المساء ، خصوصا لأن البلد الذى كنا نعيش فيه كان يهجع فى وقت باكر ، خاليا من الملاحى والأندية وما إلى ذلك مما يشجع على الخروج .

وكان أبى رجلا غريب الأطوار ، فما كنت أستطيع أن أتصوره وهو فى البيت جالسا هكذا .. كما يجلس الناس . كان لا بد أن يعمل شيئا . وكان يقول عن نفسه ضاحكا مازحا : إن هذه لا تعرف كيف تستقر ساكنة فى مكان إلا وأنا نائم ، وما دام لا بد لها من الحركة فلماذا لا أعمل شيئا ..

يجب أن أعمل شيئاً يا أولاد .. ثم يختم كلامه مؤمناً على ما يقول : وكل حركة وفيها بركة .

كنت أعود من المدرسة فأراه منهمكا في عمل من الأعمال اليدوية التي تستأثر بالانتباه وتثير اللذة وأرى إخوتي الصغار متجمعين حوله يتطلعون في فضول ويسألون في إلحاح وثرثرة ، وهو يجيب بذهن شارد ويداه لا تكفان عن العمل .

فالكراسي الخيزران الموجودة في بيتنا هو الذي يملأ قواعدها بالقش كلما تقطعت ، ويعيددها بالطلاء البنى . وصنابير المياه تصلح بيديه ، والمكتب الجميل ذو الأدراج الخمسة الذي كنت أجلس عليه أنا وأخى الذي يصغرنى من صنع يد أُمى ، وكذلك السلم الذي نصعد به إلى « المسروقة » الواقعة فوق المطبخ ، وإذا تعطل « المنبه » فكه قطعة قطعة وأعاد وضعه من جديد فإذا به يدق معلنا بدء الحياة ، وكذلك ماكينة الخياطة الصغيرة التي تخطط عليها أُمى ملابسنا كان أبى يعرف سرها كلما تعطلت .

كان لا يكف عن محاولة الفحص والحل والتركيب في فضول كان يثير مخاوف أُمى في بعض الأحيان أن يصيب الأشياء الغالية تلف على يديه ، لكنه ما كان يبالي . ثم أكسبه نجاحه في معظم ما عمل ثقة لدينا كلنا ، فكانت أُمى تسلمه ماكينة الخياطة كلما أصابها خلل .

وعند هبوط المساء كل ليلة كان أبى يعطى كل واحد منا ما عسى أن يكون في حاجة إليه. فقد أكون محتاجا إلى أن يشرح لى إحدى القواعد في الحساب ، وأخى الذى يصغرنى محتاجا إلى تسميع جدول الضرب ، وربما كان الثالث محتاجا إلى سماع حكاية قبل أن ينام . وكنت أحس أن أبى مثل النهر الكبير ،

ينهل منه كل من أقام على شطه فيرويه بعذوبة وسماحة لا تنقص من مائه شيئا .
ولذلك كان أبى موضع إعجاب زملائه وتندرهم في وقت واحد ، فقد
كانوا إذا زاروه في بيته لا يكفون عن التساؤل كلما ألقوا نظرة على شيء من
الأشياء في البيت قائلين :

« طيب وده .. عامله ولا شاريه ؟ » .

واشتد ضحكهم عندما دخل عليهم أصغر إخوتي متسللا من
فتحة باب غرفة الجلوس وهو يتاغى « بابا » فإذا أحد زملائه يسأل في دعابة
سؤاله التقليدى . « طيب وده .. عامله ولا شاريه ؟ » .



لكننا جميعا ورثنا عن أبى هذه العادة فأصبحت على أيدينا جميعا شارات
العمل ، وفي قلوبنا كلنا ميل إليه . فأختى تتسلى لتتج صداريا من الصوف ،
وأُمى تتسلى لتخيط جديدا أو لصنع ملابس الصغار من ملابس الكبار ،
وأختى الصغرى يصنع من القش مراوح وسلاسل ، حتى إذا ما حان وقت النوم
رفرف على البيت سكون تحس الأذن أنه عميق جدا لأنه وافد بعد ضوضاء ،
مثل الذى يلقي بأجنحته على المدارس عقب انصراف التلاميذ ، أو المصانع
عقب انتهاء نوبات العمل .

نعم ...

ولم أكن أحس بأن هناك أغنى من أبى إلا بعد أن دخلت المدرسة الابتدائية
بالمركز ، فأتيج لى أن أرى ما بدد هذا الوهم من قلبى . لكننى على كل حال
كنت من الموفقين في الدراسة ، وحتى بعد أن دخلت المدرسة الثانوية ثم كلية
الهندسة لم أحد عن الخطوة التى اخترتها لنفسى وهى ... أن أدفن وجهى كلما

رأيت حولي من الغنى الفاحش ما يذكرني بفقر أُمي ... أن أدفن وجهي ليس بين كفى ، ولا الرمل كما تفعل النعامة ، ولكن بين دفتي كتاب أقرأ فيه حتى تخرجت في كلية الهندسة وعينت مهندسا بالسكة الحديد ...

واغتال الموت أُمي الحنون المجتهد عقب تخرجي مباشرة فبكيت ، ثم كففت لأنني أيقنت — وبطريقة لا أعرف سرها — أن عمر أُمي كان أقصر مما بلغه ، وأن الله مد فيه بفضل منه حتى تصل سفينتي إلى الشاطئ من أجل أُمي وإخوتي .

و ذات يوم وأنا في مكتبي أبلغت أن شخصا لا يريد أن يذكر اسمه يطلب مقابلي ، وكنت ساعثا مشغولا بأعمال شتى وفي حالة نفسية غير سعيدة لبعض المشاكل التي تتعلق بمستقبل أسرتي ، فرفضت بطريقة خالية من التفكير مقابلة شخص لا يريد أن يذكر اسمه .

وبعد مضي دقيقتين على ذلك استدعيت الساعي وطلبت إليه أن يدخل ذلك الشاب ، فما كان منه إلا أنه خرج يعدو وراءه حتى أدركه في أسفل السلم وصعد به من جديد .
ودخل على .

ونهضت فصافحته وحملت فيه فقرأت في عينيه طمأنينة من تربطه بى علاقة ، لكنني ما كنت أعرفه ، وكل ما استطعت أن أعيه هو أن وجهه مألوف لدى .. خيل إلى أن هذا الجبين الضيق وهذه الشفة المسترخية قليلا وهذه الملامح التي تحمل السذاجة والإهمال والإستسلام غير غريبة عني .
وكان طويلا ضخما على ملابسه بقية من الأناقة .
ولما أدرك أنني لا أعرفه سأل بابتسام :

— هل نسيتنى ؟

فأجبت معتذرا :

— « وما سمى الإنسان إلا لنسيه » .. أيام .

فقال بعد أن زم شفثيه وعاد فترك السفلى لتسترخى :

— أنا سامى ...

فنظرت فورا نحو أذنه اليسرى فإذا بأذنه شديدة التفرطح كأنها ضغطت
بنشابة ، فنهضت ثانيا من على الكرسي حيث خرجت إليه واحتضنته
وعانقته ! فقد عرفت فيه جارى فى المدرسة الابتدائية بالمركز الذى حدثتك
عن حياة أبى فيه وكان ابن أحد ملاك الأرض هناك ، سمينا مدللا يتبعه الخدم
أينما سار ، يزحم الكرسي المشترك بينى وبينه فى الفصل ويظهر فخذ السمين
من بنطلونه القصير ، ويغش منى مسائل الحساب بالرشوة أو بالإرهاب .
ومن حياة هذا الجار وحكاياته يوم جلسنا جنبا لجنب على قمطر المدرسة
عرفت أن هناك ناسا أغنى من أبى بكثير ... عرفت معرفة اليقين .

وهتفت كمن أفاق من حلم :

— أهلا سامى ... أين الأيام ؟؟ منذ عشرين عاما لم أرك .

وكان يبدو عليه أنه يحمل قصة جريحة ، فقد كانت آثار العز غير بادية
عليه ، فقال ولم يرفع إلى طرفه :

— نعم .. لكننى سمعت عنك من أحد زملائنا ولعلك تذكره ، إنه محمود

عبده .. وهو الذى دلنى على مكانك .

— أهلا وسهلا .

— أننى أريد وظيفة ما .



وكان ابن أحد ملاك الأراضى ..
سمينا مدلا يتبعه الخدم أينما سار

(الضفيرة السوداء)

فهيبت على الكلمة كأنها صاعقة ، فلما أفقت سألته :
— لقد افترقا منذ الشهادة الابتدائية ، ونقل أوى من المركز عقب ذلك .
فما هى أخبارك ؟

فقال وهو مطرق :
— أخذت الشهادة الابتدائية ، وأنت تعلم أئننى كنت وحيد أوى ،
فأعرضت عن التعليم كأئننى لم أجد داعيا له مع وجود المال .. ثم .. أنت تفهم
بقية القصة .

— ألا يمكن أن تسرد لى بعضها ؟
— ممكن .. كنت أعتقد أن مطالب ألف رجل لا بد أن تفى بها ثروتى ،
لكننى تبينت أنها لا تكفى شخصا واحدا — وهو ما حدث لى — إذ كان هذا
الشخص الواحد محتاجا لى ..
وسكت ، وبقيت منتظرا على أمل أن يكمل لكنه لم يفعل ، فطلبت أن
يفصح فقال :

— محتاج لى قتل الوقت .. آه .. قتل الوقت . لم يكن لى عمل يا صديقى
وكان هناك ثروة تكفى ألف رجل ، لكنها عجزت عن أن تكفينى لأننى
أنفقهافى تضييع الوقت .. قتل الزمن . وأنت تعرف ما تعنى هذه الكلمة .
وعندئذ تواردت لى خيالى صور شتى .. لموائد خضراء وأسفار بقصد
المغامرات ، حتى مطلع الفجر ، ونوم حتى اصفرار الشمس ، وشهوات تحل
العزيمة وتمزق قوام الشخصية .

فهزرت رأسى وأنا أقول له :
— تحت أمرك .. هل صممت على أن تعمل ؟

— نعم .

فتجاهلت ما فى نفسى وقلت :

— صنعة فى اليد أمان من الفقر ، ومن الممكن أن تتعلم الآن فى ورش
المصلحة ما ..

فنظر إلى يديه وقلبيها ، ثم نظر إلى وفى وجهه عتاب فسأله :

— إذن صف لى العمل الذى تتصوره صالحا لك .

فقال :

— أأست زميلك ؟ .. أجلس على مكتب .

— ممكن .. لكن .. سيكون أجرك الشهرى غير كاف لطلبات
(البوفيه) يا صديقى العزيز .. فكر .

فاستأذن مستمهلا إلى الغد .. على أن يعود .

ومر يوم ولم يحضر ...

ومر شهر ولم يحضر ...

ومرت سنة ولم يحضر ...

وكننت واثقا أنه لن يحضر ، واثقا أيضا أن البقية الباقية من الوقت
ستقتله .. كأنها تأخذ ثأرها من الوقت الذى قتله هو بثروته التى كانت تكفى
ألف شخص .

وعند ذلك ترحمت على أبى الذى كان لا يكف عن العمل إلا وهو نائم ...
رحمه الله ...

الكسوف

هتفت به زوجته تناديه ، والألم يلون نبراتنا والخوف يحيل نداءها إلى
ابتهاال ، هتفت به تقول :

— قم يا محمود .. أظن أن الأوان قد آن .

ثم عاودت الأنين في اللحظة التي صاح فيها على السطح ديك فتى يؤذن
بقرب النهار ، وهي نفس اللحظة التي لبس فيها الزوج ملابسه بعد أن نفّض
عنه النوم ، واستودعها الله وتركها وخرج من الدار .

كان كل شيء نائما ، غير أن القمر كان سهران بانتظار طلوع الشمس ،
ومن الحقول يفوح عطر ممزوج بالندى ، والجو دافئ ، والطريق الفرعى
الذى سلكه الزوج حتى يصل إلى الطريق العام كان ملتويا ضيقا ، لكنه كان
قلقا يريد أن ينفذ مهمته بسرعة . وعثر على حفرة صغيرة مملأها الماء الذى
ساح من التربة فى منتصف الليل ، فلم يبال بشيء لأن أنين زوجته كان
لا يزال مائلا أذنه ، وظل يهمهم بالدعاء . وأخيرا لاحظت له الأشجار العالية
الواقعة على الطريق العام ؛ لم يكن فيها غصن واحد يهتز كأنما النوم قد أثقل
أوراقها ، وفرح لأنه صار على مقربة من غايته ، لكنه وقف فجأة على الطريق
الزراعى لأن فكرة مزعجة هبطت عليه ، وسأل نفسه قائلا :

« لكى أصل إلى دار القابلة يجب أن يكون القارب على هذا الشاطئ ،
وماذا يكون العمل لو شاءت المصادفة أن يكون القارب على الشاطئ الثانى ؟
إن زوجتى تعاني آلام الوضع وهى الآن وحيدة ، لكن ... » .

ثم كف عن التفكير ووقف على الطريق كأنه يتفقد كل ما حوله ، وكانت
خيوط الفجر الأولى آخذة في الظهور على الأفق ، لكن نور القمر كان يفرش
الطريق والمزارع الخالية من القمح وينسكب على رءوس الأشجار ، وبينما هو
متجه نحو الشمال إلى حيث يقف القارب الذي ينقل من شط إلى شط ، مرت
على الطريق سيارة نقل في اتجاهها إلى الشمال كذلك ، فاتخذ جانبا ليفسح
لها ، وما أن تجاوزته بعشرين مترا حتى سقط فجأة من حمولتها أحد الأكياس
التي تحملها ، وهم أن يصيح بالسائق ليقف ، ولكن شيئا شريفا في داخله منعه
عن هذا العمل . وواصلت السيارة سفرها نحو الشمال ، ونسى الرجل لفترة
ما تلك المهمة التي خرج من أجلها . نسي ذلك تماما ولم يعد مشغولا إلا
بالغنيمة التي وقعت على الأرض ، وجرى نحوها سريعا فألقى الكيس
مطروحا على الطريق ورائحة دقيق القمح تفوح من مسامه . فإذا به مملوء لم
يصبه أذى من السقطة . ووقف حائرا طامعا يفكر ... إن النهار على وشك
أن يسفر وربما رآه أحد الناس . وفضلا على ذلك فإنه لا يستطيع أن يحمله
حتى القرية ؛ والأهم من هذا كله هو ذهابه إلى القابلة لأن زوجته بانتظارها ،
ولعلها الآن تعاني آلاما شديدة ، لكن كيس الدقيق فتح أمام خياله أبوابا
سحرية ، خصوصا لشدة حاجته إليه في هذه الفترة ، وحمله على كتفه وسار
به نحو ثلاثمائة متر ...

كان الماء في الترعة منخفضا ، وكان هناك مصطبة تعتبر امتدادا للترعة
منخفضة عن الطريق نمت فيها نباتات برية مثل البرنسوف والصفصاف
والحشائش . ووقف عندها بصره فنزل ودس الكيس في وسطها ، واطمأن
تماما إلى هذا الخبأ ، ثم صعد إلى الطريق واتجه نحو القارب ليعبر به إلى دار

القابلة .

لكنه فوجئ بأن وجد القارب راسيا على الشاطئ الثاني ، والسلسلة الحديدية التي تشده بين الشطين غارقة في الماء ، والنهار بدأ يرسل خيوطه البيضاء على الأشياء من وحله .

وبينا هو يفكر في خلع ملابسه وعبور التربة سباحة ، رأى رجلا وامرأة يهبطان نحو القارب .. كانا يريدان العبور إلى الشاطئ الذي هو فيه ، تنهد .. وحمد الله .. نعم .. حمد الله وخجل منه لأنه قد فرغ من توه من ارتكاب جريمة .. لكنه ما لبث أن تناسى الموضوع وألقى بسمعه إلى الخشخشة الرتيبة التي تنبعث من السلسلة التي يعبر القارب بواسطتها . ووصل الرجل والمرأة إلى الشاطئ ، وكانت دهشته كبيرة حين رآهما ، قال :

— لقد كنت في طريقى إليك يا أم السعد ... إن زوجتى تلد .. إلى أين أنت ذاهبة ؟

— ألا تعرف ابن من هذا ؟ إنه من العزة القرية .. حالا ... سأمر عليكم .



وعند الظهر كان كل شيء في الدار صامتا ... فقد بشر الأب بمولودة بنتا ... وكانت الثالثة في الترتيب ... والريفيون يحبون الذكور ... كان الأب يقول في نفسه : إننى لن أجد من يدافع عني عندما أشيخ لأننى لم أنجب ولدا .

لكنه كان ينتظر المساء لأن كيس الدقيق سينثر في داره هناء ورخاء . على أنه لم يبلغ زوجته نبأ ما فعل وقت الفجر ، ربما لأنه أراد أن يدخر لها

مفاجأة ، وربما لأنه خاف تأنيبها وأراد أن يضعها أمام الأمر الواقع .
وعند العصر ذهب إلى الترعة ، وتحين فرصة ألا يراه أحد وهبط إلى حيث
وضع الكيس .. واطمأن عليه . إنه لا يزال كما هو ... وتركه وعاد .
كان ينتظر المساء بقلق ، بل لا بد من وقت متأخر نوعا من الليل لأنه
سيحمله على حماره .. إنه ثقيل بالطبع .

ودخل المساء ، وكان أهل الدار مشغولين في إعداد طعام الوالدة ، وتوافد
عليهم الأقارب وظلوا ساهرين . وكان الرجل مشغول البال بكنزه ، فقد
صور له خياله ألف مرة أن عابر سبيل نزل إلى هذا المكان لصيد السمك أو
قضاء الحاجة فعثر على الكنز ، وزاد من قلقه أن الصيادين كثيرا ما يخرجون من
القرى المجاورة لينصبوا « الصنار » أو يلقوا الشباك في هذه الترعة .
وأخيرا ... تقدم الليل وانصرف الزائرون ، وحانت ساعة الخروج فتردد
من جديد هل يخبر زوجته بالأمر ؟

وظلل الصمت على المكان ، وكانت الزوجة قد سبحت في نوم عميق من
أثر الجهد وسوء البشرى .. لأنها ولدت بنتا فآثر أن ينسحب في صمت ،
وذهب فسحب الحمار من الحظيرة وركبه إلى هناك .

و لم يلقه في الطريق ما ينغص باله ، وأخذت دقائق قلبه تتزايد كلما قرب من
مكان الكنز ، ولم يكن هناك قمر .. لأن القمر كان لا ينهض إلا في أواخر
الليل .

ولما قرب من المكان ربط حماره في مدخل أحد الحقول ، ثم سار حثيثا إلى
الترعة ، وكان يتهل إلى الله بطلب واحد هو ألا ينهق حماره في هذا السكون
لأن ذلك قد يترتب عليه ما لم يدخل في حسابه قط .

وأخذ ينحدر من الطريق إلى المصطبة التي نمت عليها الشجيرات البرية ، وما إن وضع قدمه على أول شبر فيها حتى فوجئ بأنها مملوءة بالماء ، فتحسر ؛ منسوب الماء في التربة كان قد ارتفع بحكم نظام الري . عندئذ قدر أن الكثر قد ابتل إن لم يكن غرق . .

ونسى كل ما وراءه ، ولم يكن له من هم إلا أن يرى ما حدث ، فخلع نعله وشمر ثيابه وخاض الماء الذي غطاه حتى ما فوق الركبتين . ثم سار .. وسار .. ووصل إلى شجرة الصفصاف ، فألقى الكيس غارقاً تماماً حتى صار قطعة من العجين .

ومرت على الطريق الزراعي في هذه اللحظة سيارة نقل ذكرته بما مضى ، وكان سائقها رافعا صوته بالغناء ، ولما ظلل الصمت من جديد أخذ يفكر .. لماذا لا ينقله ؟ إنه دقيق تحول إلى عجين .. وهذا طبيعي .. ليكن كيساً من العجين يخبز غداً مع شروق الشمس .

واستجمع قواه وجره حتى الشاطئ . ثم وقف وغسل قدميه من الطين وليس حذاءه ، وذهب ليحضر حماره من مدخل الحقل .

وهناك .. وقف حائراً . لأن صدمة غير منتظرة أفقدته رشده ، فوقف يحاول جمع شتات ذهنه كأنه أفاق من إغماء ، إنه لم يجد حماره .. لقد كان مربوطاً فأين ذهب ؟ . هنا . في هذا المكان بدليل هذا الروث الذي تركه كتذكاري مضحك .

وأخذ يدور حول المكان في صمت ولكن بلا جدوى ، طبعاً كان هناك من يراه .. عيون غير عيون الله .. رجل آخر طبيعة نفسه مثل طبيعة نفسه لقط حماره من بين الحقول ، كما لقط هو كيس الدقيق من على الطريق .



كان ينتظر المساء بقلق ، بل لا بد
من وقت متأخر من الليل ...

وكان لا بد له أن يعود ..

وفتح باب داره برفق ، كما خرج برفق ، ولما دخل على زوجته الفاها
لا تزال نائمة ، والطفلة الجديدة فى اللفائف ، وعلى وجهها تعبير لا يعنى
شيئا .

وايقظ زوجته من النوم :

— قومى .. عندى ما أقوله لك .

ولما انتهى من قصته دقت على صدرها بكفها ، وأطرق هو نحو الأرض فى
خزى أشد من خزى التى بشرت بالأنثى الثالثة .

وعندما أشرقت الشمس .. شمس اليوم التالى .. كان جماعة من الفلاحين
ملتفين حول كيس العجين الملقى على الطريق وهم يضحكون ويتساءلون عن
أصل الحكاية . وأخيرا قرروا أن يلقوا به فى الماء .. خشية أن يأكله إنسان أو
حيوان فيموت .. لأنه ولا شك مسموم .

الأشياء النفيسة

لو لم تُبد له في ذلك الصباح لما صارت نهباً لكل هذه المتاعب .. لقد كان دافعها في الواقع أن تتخلص من إحراج ، ولكنها وقعت في إحراج دون أن تدري .

فقبل تمام الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم وقفت الآنسة أمام إحدى المكتبات لتشتري كتاباً مدرسياً ، وكان الزحام شديداً نوعاً ما والبائع الوحيد في الداخل يبدو مرتبكاً من سرعة الطلبات . فكل الواقفين والواقفات يريد الانصراف قبل أن يذق جرس الدخول .

وعلى الرغم من أن الطلبة في هذا الموقف اتخذوا ناحية اليمين ، واتخذت الطالبات ناحية اليسار ، فإن الآنسة قد أحست به على مقربة منها في اللحظة التي اتكأت فيها على « فاترينة » البيع ، وبمنظرة من زاوية عينيها عرفت وجهه ..

إنه هو نفسه .. هو نفسه ، هو الذي يتبعها في الطريق صامتاً كأنه الظل ، وإذا تحدثت فيشتتين لا يخرج من بينهما كلام .

وكان وجهه اليوم أكثر شحوباً .. ولم تستطع أن ترى عينيه لأنه سترها بنظارة . ولم يطلب شيئاً من البائع كأنما تريث حتى تنتهي من طلبها .. لكنها أحست بكفه تتلمس الطريق إلى يدها تحاول أن تدس بين أصابعها ورقة مطوية .. وفي طرفة عين مرت برأسها آلاف من الأفكار يدعوها أكثرها بأن ترفض ما يقدم إليها .. حتماً .

وفي الوقت الذي صممت فيه على أن تتراجع تاركة مكانها وجارها ورسالته . نحاتت عزيمتها أمام ما أحسته من إحراج ومن خوف العيون التي خلفها أن تقع عين منها على هذا المنظر . ولعل شيئا من حب الاستطلاع ساعد أيضا على ذلك ، فأخذت الورقة المطوية من اليد الممدودة ووضعتها في أقرب جيب ، ثم اندفعت راجعة تتلمس طريقها إلى المدرسة .

وتنهدت بعد أن ابتعدت عن الناس ، ومشت وحدها في الطريق وأخذت من هواء الصبح نفسا طويلا ، وعلى الرغم من بغضها لهذه التجربة الأولى وخوفها منها فإنها أحست بشوق إليها . وتحسست الورقة وتذكرت حوادث تدور حول أمثال هذه المواقف .. وحكايات قصصها البنات .. وكلمات حفظها بعضهن يرددنها أحيانا في خوف وحذر ، وقالت وهي تنقل خطواتها مسرعة وتتلفت حولها كأن أحدا يسرق الخطى خلفها :

— إن في جيبى هذا الصباح كثيرا من الكلمات . ليتنى أستطيع أن أقرأ أول سطر لأرى كيف يتكلم .

وما كادت تمد أصبعها لتمسك بطرف الرسالة وتخرجها من جيبها حتى أحست بيد تقبض على كتفها فالتفت مذعورة ، وإذا بالضحكة المرحية والوجه البشوش يلقي عليها تحية الصباح فتتنفس في عمق ، وتركت الخطاب مكانه ، وألقت نظرة عاتبة على صديقتها وجارتها في الفصل ، وسارتا تتكلمان .

وأخذت جارتها تقص عليها وهما في الطريق آخر ما فعله أخوها في قضية زواجه . تلك التي شغلت الأسرة وأوقفتها على رجل واحدة منذ ثلاثة أشهر . فهو لا يريد أن يتزوج من خطبوها له ، لا يريد أن يتزوج إلا عن حب ،

وأبواه يريدانه على أن يتزوج كما تزوج أبوه . والمشكل في الأمر أن حادثة الحب لم تقع بعد ، فهو لم يعثر على التي تبادله الهوى الذى يفضى بهما إلى الحياة الزوجية .

وكانت تستمع إلى جارتها وخواطرها تنتقل بين سطور الرسالة التي لم تقرأها حتى الآن . ولم ينزعها من تلك الخواطر إلا دقائق الجرس وهي على مقربة من المدرسة ، فأحست كأن قدرا يحول بينها وبين قراءة هذه الرسالة ، ولو لم تكن جارتها يقظة العينين لوضعتها على حجرها وقرأت بعض ما فيها ، لكنها أودعتها حفية الكتب حتى تخرج في الفسحة الأولى ، وأحست أنها لم تفهم كلمة واحدة مما قاله المدرسون ، وبدأ الزمن ثقيل الوطأة يجبر نفسه جرا ، حتى إذا ما دق جرس الفسحة شعرت برغبة في العزلة ، لتخلو إلى نفسها وتقرأ الخطاب .

كانت كلماته خجولة مثل صاحبها ، مترددة هادئة كمن يتكلم بكلام غير مفهوم . أما الخط فقد كان دقيقا كأنما كتب بسن إبرة . أما الروح الغالبة على الرسالة فلم تكن سوى ابتهاج ورجاء واستعطاف التي لم يعرف اسمها بعد أن عرف روحها بين ألف نفس .. ثم رجاء أخير .. بالرحمة .. قبل أن يموت من الوجد والأرق والأسى والحب .. وهو في انتظار الرد .

وقرأت الآنسة هذا دفعة واحدة كأنما ازدردته ازدرادا ، فألقتها السرعة على أن تتذوق طعم ما قرأت ، ولم يكن القلق الذى صاحب موقفها متيحاً لها فرصة الإحساس الواضح . حتى سمعت على مقربة منها وهي تقرأ منزوية بين السور والمبنى الخلفى تضاحك بعض التلميذات وهن يستغربين وقفتها ، ورمتها إحداهن بعدة كرات من الورق قائلة :

— ماذا تقرئين ؟

فطوت الآنسة ما في يدها . ثم أخذت طريقها نحو حديقة المدرسة .
أما بقية حصص ذلك اليوم فقد ضاعت في الهواء ، وأحست وهي تصفى
لدقات جرس الانصراف آخر النهار أنها خانت وقتها وظلمت نفسها ، وأن
هذا الفتور الذى يملأ قلبها لن يجعل الحياة هائلة كما يصورون ، فهي أشبه
بالسكارى أو الناقهين من المرض ، لا تحس الأشياء إحساسا محدودا .
ولا تصاحبها السكينة التى تجعل العين ترى كل شيء جميلا .

و لم يكن يشغل بالها شيء مثل ما كان يشغله ما أتاحته لهذا الشاب من فرصة
التجروء والتقدم نحوها خطوة أخرى ، كانت تقول في نفسها : لو أننى
أسقطت الورقة تحت قدمى ، أو لو أننى دفعت يده غير خائفة من أحد لوقف
الأمر عند هذا الحد ، لكننى أخطأت .

وحاولت ألا تعود وحدها في هذا اليوم . فسارت مع طائفة من زميلاتنا ،
وكانت عيناها تدوران في كل اتجاه في حركة زئبقية قلقة كأنها مدين مفلس
يطارده دائن سليط اللسان . ومشيت الأمور على خير ما كانت ترجو ، فلم
يقع عليه نظرها ، لكنها بعد أن أودعت حقيبتها في حجرة مكتبها كانت تحس
أنها لا تريد أن تفارق الحجرة كأن شيئا محبوبا مزعجا مستبدا في وقت واحد
يربطها بهذه القصاصة من الورق .

وبعد أن غادر إخوتها الذين يشاركونها في الحجرة أماكنهم إلى فراشهم
أخرجت الرسالة وأعادت قراءتها .

او كان كل شيء في البيت نائما ، والخادمة تن في مرقدتها من أثر جرح
السكين في كفها وهي تزاوّل بعض أعمال البيت ، ولم يكن شيء من الأشياء
(الضفيرة السوداء)

بقادر أن يدخل رأس الآنسة في هذه اللحظات إلا كلمات الخطاب الذى يثير ضحك الكبار إذا قرأوه .

وكان الخطاب بين يديها ، وهى معتمدة برأسها على ذراعها ومتكئة بكوعها على المكتب .

وأفاقت من أحلامها الصغيرة على صرير الباب وهو يفتح ، وفجأة رأت والدها واقفا بقامته المديدة عند مدخل الحجرة وهو فى ثياب نومه وعلى وجهه تقطعية ارتعدت لها فرائصها ..

وبالطريقة التى تهرب بها الطريدة إذا حاصرها الصياد .. بالغريزة وحدها ، وليس بالعقل ، تخلصت من الموقف وخبأت الرسالة بحركة سريعة وهى تراقب نتائج ما عملت فى عين والدها الذى تضرر له الحب والاحترام .

ولم تعرف نتيجة ما سمعت إلا عندما قال لها بلهجة فيها فتور التعب :
— قومى يا بنتى جهزى لأملك زجاجتين من الماء الساخن لأنها فى شدة التعب ، والخادمة مريضة ..

وتنفس الفتاة الصعداء ، وعملت ما طلب منها ، وألهاها موقف أمها لساعتين أو ثلاث ساعات عن القصاصة التى أضاعت سلام يومها .. حتى آوت إلى الفراش بعد منتصف الليل وكأنها حضرت من سفر طويل سائرة على قدميها ومتاعها فوق رأسها .

ونفضت عند الصباح تحاول أن تتذكر شيئا مهما ... أين أخفت الرسالة ليلة البارحة ؟

كان إخوتها قد سبقوها إلى المدرسة فى ذلك اليوم ، ولما دخلت إلى

المكتب وألقت نظرة على حقيبتها عرفت بطريقة لا تقبل الشك أن يدا عبث بها ، فليس كل شيء في المكان الذي تعودت أن تضعه فيه .
ولم تجرؤ على أن تسأل أحدا . يا لها من مصيبة ؟ . فلا شك أن والدها قد قرأ على وجهها كل ما كانت تقرأه عيناها في الورقة .. وها هو ذا قد فتش حقيبتها وعثر على الخطاب ... كثير من اللصوص يقبض عليهم عند السرقة الأولى ، ربما كان أمر هذه السرقة تافها ، وربما كان اللص نفسه مسوقا إلى عمله بإرادة مسلوبة ، لكن سوء طالعهم يرميه بين يدي الشرطة .
وعادت تسأل نفسها : ما الذي دعاني إلى أن أخضع لذلك الحرج وأمد يدي إليه ؟ لو أن بعض الشجاعة صاحبنى صباح أمس ما حدث كل ما حدث .

وفحصت نظرات أمها وهي تودعها قبل الخروج ، فرأت الفتور واضحاً في نظرتها وتحيتها ، ولما خرجت إلى الطريق أحست بنفس الإحساس الذي عذبها في اليوم الماضي ... إحساس المدين الذي يطارده الدائن ...
وكما تدفن النعامة رأسها في الرمل حتى لا ترى الصائد ، ظنا منها أنه بذلك لا يراها ... مشيت في الطريق لا تلتفت إلى أحد ، لا يمينا ولا شمالا ، وهمس أحد المارة لها بكلمة فلم تعلم من هو ولا ماذا قال . كانت هموم شديدة تخيم على قلبها ، وظلت طول النهار منزوية في ناحية المدرسة ، وحيدة كأنها فقدت عزيزا .

وانقضى النهار . وجلست الأسرة إلى العشاء ، وأخذ الأب يتكلم عن بعض أصدقائه وكيف لم يكتبوا إليه خطابات منذ مدة . وجعل ينمى على مصلحة البريد عدم اهتمامها . ثم قال متطرفا :

— لعله من الأفضل أن تسلم الخطابات باليد إلى من نكتب إليهم ..
فذابت من الخجل وودت لو قدرت على أن تترك مكانها .



وحاولت عبثا بعد ذلك أن تجد الخطاب ..
وفي اليوم الثالث عثرت على شيء أهم .. على الشخص الذي كتبه إليها ...
كان واقفا ينتظرها عند أحد المنعطفات وعلى وجهه قناع من القلق وعلى
عينيه منظار يسترهما تماما . وفي هذا اليوم تقدم إليها وهو أكثر شجاعة لأنها هي
منحته الشجاعة ، وسار بجوارها بضع خطوات ثم سألها هامسا :
— أين الرد ؟ .. الرد .. الرد ..

— هل تريد الرد ؟

فقال متنهدا :

— نعم ..

فقالت :

— هو أنك ...

وكانت الكلمات التي خرجت من فمها كقيلة بأن تسقطه على الأرض ،
ولولا أنه تماسك ، وعند أول منعطف انحرف مبتعدا عنها ، وأخذت تبحث
عن ريقها بعد ذلك ، ثم حاسبت نفسها على ما تفوهت به ، تلك الكلمات
التي كانت تنزه نفسها عن أن تواجه بها أى إنسان مهما كانت إساءته في
نظرها ، لكنها بعد أن هدأت سألت نفسها :

— من المسئول عن كل هذه الأخطاء ؟

فكان الجواب :



وأخذت تبحث عن ريقها بعد ذلك ،
ثم حاسبت نفسها على ما تفوهت به

— إنها المسئلة .

وظلت طوال خمسة أيام تعيش حياة من ينتظر صدور حكم ، ونظرات أبويها تحمل معاني شديدة الغموض ، وهمت أن تسأل أمها عن سر هذا التغير ، لكنها خمنت الجواب فأمسكت عن السؤال ، فماذا عسى أن يكون جواب أمها إلا أن تقول لها :

— يكاد المريب يقول خلونى .

وفى اليوم السادس ، وفى الليل ، والبيت نائم أيضا ، وهى فى الحجرة وحدها ، بعد أن انصرف إخوتها الذين يصغرونها إلى فراشهم — كانت تتصفح إحدى كراسياتها ، فعثرت فيها على الخطاب ، وتناوبتها لإحساسات كثيرة ذات أطوال وأبعاد متشابكة تورث الدوار وضيق التنفس .

إذن فالخطاب لم يقع فى يد أبيها ، وكل الذى أحسته من أبويها فى هذه الفترة لم يكن إلا فى باطنها هى .. حسن .. والحمد لله .. لكن .. إن هذه الكراسية غابت عن حقيبتها ثم رُدَّت إليها .. سلمت إلى المدرسة لتصحيح بعض الواجبات ثم عادت .. ترى هل وقع بصرها على هذا الخطاب ؟

وبعينين زائغتين من الملح أمسكت الخطاب بعد أن عاد من رحلته ، فإذا به يحمل آثار الأماكن التى مربها كأنه جواز سفر . لقد وجدت هذه العبارة مكتوبة بقلم أحمر فى ذيل الخطاب « الأشياء النفيسة لا تباع على الأرصفة ، ولا على قارعة الطريق . وعندما نبيع الأشياء النفيسة أو نشترها يجب أن نخطأ حتى لا نخدع .. كنت فى مثل سنك فاعلمى بنصيحتي » .

وبعد أن قرأت هذه العبارة أشعلت النار فى الخطاب فتحول إلى رماد .

وقد خيل إليها من فرط غيظها أن تحرق الرماد مرة ثانية ، وباتت تحلم طول الليل بالنظرات التي ستغفل مصوبة إليها من هذه المدرسة .
لكنها عندما لقيتها بعد يومين لم تر على وجهها إلا التعبير العادى كأنها لا تعلم من أمرها شيئا . وبقيت ملاحظها طول العام الدراسى تذكرها بخطئها . كانت فى الواقع بالنسبة إليها أشبه بصوت الضمير .
وانتهى العام ، وفى بداية العام الجديد ، عند افتتاح الدراسة ، اختفى من حياة هذه الأنسة وجهان كانا يثيران فى نفسها أشياء لا تحملها بسهولة : وجه الشاب الذى أعطاها الرسالة ، ووجه المدرسة التى مثلت صوت الضمير ، لكنها ظلت بعد ذلك تتحسس آثارهما فى أعماق نفسها زمنا بعيدا .

القربان

« رب قطرة دم سالت من حيوان فحورت إنساناً »

كانت ذكريات القرية التي رحل عنها تعاوده وكأنها أحداث جديدة ، ساعة كان يجتاز شوارع المدينة بلا هدف ، وعلى يمينه سور لإحدى شركات الأقطان وعلى يساره شريط السكة الحديد والوقت ليل والجو صحو والهواء رطب يهمس في الأغصان ، والشارع شبه مقفر من الناس ، والمصاييح متباعدة المدى ، وعلى المكان هدوء يثير الذكريات والفضول والخاوف ، وهبت عليه في وقفته رائحة لا يدري لماذا ذكرته برائحة القطن ، فعادت إليه تفاصيل السنوات التي قضاها في القرية ، أيام تفتحت عيناه على العمل وهو صبي لم يزل في الثامنة من عمره ... يسير للمرة الأولى إلى جنب أمه نحو حقول (البيه) ، والشمس تخطو إلى المشرق خطواتها الأولى ، وهو مع قافلة من الرجال والنساء والصبايا يفرك عينيه من بقية النوم ، ويتمنى لو تركوه يرقد تحت ظل شجرة ، وفي حناجر البنات أغنية متهاكة يحاولن أن تكون لحنا يثير الحماسة .

وعادت الرائحة التي لعلها هبت من أحد المخازن تملأ أنف (حسن) وهو عند ناصية الشارع ، فابتسم في سعادة كسعادة الجريح الذي برئ ، وأخذ يحملق في عجلات قطار البضاعة ويتذكر المتاعب التي عاناها في حقول البيه في الأسبوع الأول قبل أن تمرن يده على خطف اللوزات ، والعثرات التي أصابته ، والشتات التي لاحقتة ، والخدوش التي ملأت أطرافه وصفحة خده ، حتى إذا مالت الشمس للغروب عاد من القافلة إلى الدار ، وأغنية فيها شيء من الحماسة تبشر بالعشاء والرقاد حتى الصبح .

وتنهّد (حسن) وتذكر أنه اليوم في العشرين من عمره ، وأنه يعيش في مدينة كفر الزيات .. تملأ الطمأنينة حياته في العمل ، مع أن والده كان يخاف ألا تتسع لهم حقول البية ذات يوم لسبب من الأسباب فتقع النتيجة الأليمة . نعم . هناك ذكريات تسعة عشر عاما مضت لهذا الشاب وقعت فيها حادثتان كانتا سبب تحول في حياته البسيطة .

وكانت الحادثة الأولى يوم نزول البية الصغير إلى حقول القطن ليتفقد المزرعة وليرى منجم الذهب . الذهب الأبيض تعمل فيه الصبايا والرجال . وكان على صهوة حصان ووراءه خادم وفي فمه سيجار وعلى رأسه قبعة ، وتحركت الأمانى لقدم البية كما تحركت المخاوف ، وحمل النسيم إلى أنوفهم رائحة مختلطة من العطر والتبغ . فشهق البعض وكم البعض ضحكته وهو منحن عند جذور الشجر ، وكان (حسن) في مقدمة العمال ، يده تحطف اللوز كأنها دولا ب ، وعلى صفحة وجهه المستدير سمرة من الشمس وصحة من الله ، وقد شد وسطه بحزام من القطن ولبس قلنسوة فيها عرق وزينة من أشغال إبرة لفتاة تحلم بالزواج منه .

ووقف البية الصغير أمامه وسأله عن اسمه واسم أبيه ، ثم طلب إليه بنبذة توحى بالأمان أن يمر عليه آخر النهار عقب انتهاء العمل . ولكن الحصان تحرك وصهل وتبعه الخادم ، ثم تبعت ذلك ضحكات وتنبؤات وأغنية مازحة . وأخذ الجميع يخمنون ماذا سينال هذا الشاب الوسيم .



تحرك قطار البضاعة من مكانه وسار في ببطء استطاع معه الشاب أن يعد العربات وأن يعرف شحنة كل عربة ، ولما مرت أمامه عربة مقفلة تذكر

الدهليز الذى فى دارهم وليلة اجتازه ليحمل تفاصيل المقابلة إلى أبيه العجوز ، فقد عرض عليه البيه الصغير أن يكون تابعا له يعنى بحصانه و كلابه وأدوات صيده ويحمل إليه الطعام إذا كان بعيدا عن البيت ، وسيكون أجره بعد ذلك أجر الذى يشتغل فى الشمس طول النهار ! .

وكان الشاب شديد الرغبة ، لكن والده أعرض عنه فى تأفف ، فقد كانت فكرة الأب أن العمل وإن كان شاقا خير من التبعية وإن كانت مريحة ، وأن قرب ولده من مثل هذا الشاب لن يمنحه إلا أحساسا بالذل مع مطلع كل شمس . وسأله الشاب : لماذا يا أبى ؟ فنظر إلى المصباح المعلق على الحائط وعاد يقول له : ذلك لأنه ابن أبيه ، وقد كان أبوه أيضا ابنا لجده . سترى أنهم لن يشعروا إلا بأخطائك ، أما عملك الطيب ... فلا . ولن تكون لك عنده قيمة الحصان . فأجابه الابن : لكنك نسيت يا أبى غير قادر على الرفض ... لأن الرفض معناه أنى لن أجد عملا فى القرية .

فتنهذ الأب فى يأس وقال :

— نعم يا بنى ... نعم ... نعم نسيت ...

وتسلم الشاب عمله الجديد .

وحين تذكر ما عمله تبسم وهو حائر ، فلقد كان عليه أن يمشى بحصان وكلبين كل عصر مسافة قصيرة ، فى يمينه سلاسل وفى يسراه لجام ، تلاحقه همسات القرويين وتطالعه النكت من عيونهم . فاستشعر فى الأيام الأولى نحجل الرجل الذى يلعب بلعبة طفل على الطريق العام . ثم أخذ هذا الإحساس يفارقه ليحل مكانه إحساس بالذل كان يأوى به آخر اليوم إلى فراشه فلا

يذوق النوم . واشتد به القلق والحزن في إحدى الليالي التالية ، حين كان عائدا من المزرعة إلى القرية والطريق ساكن . فخيّل إليه وسط السكون أن هاتفا ينادى باسمه ، ولم يصدق أذنيه ، ولكن الصوت عاد يدعوه بنبرة كان يعرفها تهمس السين وكان بين الأشجار شبح فتاة ، فتحسس القلنسوة فوق رأسه ، إنها هي التي صنعت له بالإبرة زينة فيها . وأحس بخفقات قلبه تتوالى ، وبشيء في ثقل الكابوس يحتم على صدره ، فسألها وهو خائف :

— مالك يا زينب ؟

فقالت له :

— إننى سأتزوج ابن خالى ... وانتهى الأمر .

فسألها في قلق :

— من الذى أنهى الأمر ؟

فأجابت بصوت مخنوق :

— أنت ... أنت يا حسن . إن أهلى يعبروننى بالصنعة التى اخترتها

لنفسك .

فسألها :

— وهل أنا الذى اخترتها لنفسى ؟ . أنت تعلمين أننى مضطر يا زينب .

فأجابه من خلال دموعها :

— وأنا مضطرة . إنهم يقولون لى : « إن الرجل الذى يمشى خلف

المواشى أشرف من الرجل الذى يمشى خلف الكلاب » .

ثم انفجرت باكية ، وانسربت في الظلام وتركته .

اووقف بعدها يتلفت ولم يكن يصل إليه شيء إلا صغير لجندب وحيد

يبحث عن صوت يناغيه ، ثم جر أقدامه حتى وصل إلى الدار ، وهناك وجد أمه جالسة عند العتبة على وجهها سحابة دكناء من طرحة (التل) التي أرسلتها إلى الأمام ، وعلى مقربة منها مصباح يرسل نوره في قلق . مصباح بلا زجاجة ... يخفق نوره يمينا وشمالا في هيئة لسان أرجواني .

وشعر الشاب كأن مصائب الدنيا وقفت له بالمرصاد ، وحدثه قلبه أن أباه يعاني مرضا ربما داهمه وهو غائب في العزبة ، ولكن أمه أخبرته أن أمرا خطيرا وقع في دارهم .. ذلك أن البقرة التي يملكونها .. مريضة .. وأن عليه أن يجلس على مقربة منها وفي يده السكين الكبير .

وتذكر الشاب أنها بالنسبة للأطفال كأنها أم ثانية ، وبالنسبة للكبار كأنها مخزن ماثونة وآلة في الحقل .. وخيل إليه أنها أيضا زينة لدار الفلاح أجمل من أقفاص العصافير في بعض الشرفات ، لكنه على الرغم من كل ذلك دخل إلى القاعة وسحب السكين الكبير من إحدى الكوى ، ونظر إليها مثقل الضمير كأنه صديق سيغتال صديقا .

ولما اتجه حسن إلى الحظيرة تذكر الكلمات الأخيرة التي قالتها له زينب هذا المساء : (إن الرجل الذي يمشى خلف المواشي أشرف من الرجل الذي يمشى خلف الكلاب) ، فدمعت عيناه .. لأنه شعر .. أنه لن يكون له مع الصباح ماشية .

ونظر في عيني البقرة كأنه يبادلها الوداع وقد نجأ السكين في مكان قريب ، وكانت آيات من القرآن تصل إلى أذنه .. يرتلها أبوه في الحجرة القرينة تحمل معنى الدعاء ، لكن .. كان الله يريد أمرا غير الذي يدعوه به الرجل ، فباتت دار (حسن) وقد غطاها حزن لا يفترق كثيرا عن حزنهم



أحس أن البقرة التي سال دمها
تطالبه بما يطالب به الضحايا ...

على إنسان .



لكن الأمل عاد فداعب (حسن) عصر اليوم التالى .. إنه يعمل مع سيد كبير هو اليه الصغير ، ولما قابله ذلك العصر كان الشاب متوقعا أن يسأله السيد عن سبب همومه ، فلما خاب ظنه حاول الشاب أن يتطوع فيثته الشكوى ، وكان عليه أن يتلطف فى الأمر فقال له :

— لقد حدثت عندنا حادثة كبيرة .. ليلة أمس يا سيدى .

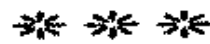
فأجابه السيد فى قلق :

— حادثة كبيرة فى أرضى أنا ؟

فاستدرك الشاب قائلاً :

— لا .. فى أرضى أنا . إن ... بقرتنا قد ذبحت أمس . فابتسم السيد

وحل المشكلة بنكتة لطيفة : « تعيش يا سيدى » وولاه ظهره ومضى .



ولم يطق الشاب بعد ذلك أن يغسل الحصان أو يقود الكلاب . فأحس أن البقرة التى سال دمها ليلة البارحة تطالبه بما يطالب به الضحايا ، فعاد إلى القرية وهو مصمم على ألا تطأ أقدامه بعد ذلك أرض اليه الصغير .

وكان فى شروء ليلة أمس . ليلة نادته حبيته فى الظلام وأسرت إليه بما أحزنه ، وتكرر الموقف فقد سمع همسا يناديه . لكنه كان من صوت أغلظ . فوقف وتلفت ، وصدرت منه شهقة المفاجأة حين رأى بين يديه صديق صباه .. سعد محمود .. آت من السفر فى عطلة قصيرة ليزور أهله ، ومعه (سبت) تفوح منه رائحة الفواكه ، وسأله عن حاله ، وسأله سعد

عن حاله . وعرف كل منهما حال صديقه .
ولم يكد حسن يفرغ من طعام العشاء حتى عرف طرقات صديقه على
باب الدار ، واتفقا على السفر معا ... وهنا في كفر الزيات في أحد المصانع
وقف الشاب أمام غموض الآلات مبهور النظر ، ثم .. تغيرت حاله .
وكان ذلك منذ عامين . نعم ... ومصمص الشاب بشفتيه حين عاودته
هذه الذكريات ، وأحس بسعادة الجريح الذي برئ ، وكان قطار البضاعة قد
أخلى الطريق منذ لحظات لقطار قادم من الشمال .. وعلى الشريط الحديدي
انعكاسات النجوم . ووثب المدير ودخل قطار الركاب ، فرأى من النوافذ
فتاة فتذكر زينب التي ستزف إليه بعد أسبوع ، والبقرة التي كانت تملكها
أسرته . تلك التي حررته بدمها دون أن يشعر .

الأُمَمُ الرُّومُ

كان ميلادها سابقا لميلادى .. ليس فقط .. بل سابقا لميلاد أبى ، وقيل ..
إن جدى رآها وهو صغير . وسمع شقشقة العصافير فوق أغصانها ، فى زمن
لم يكن الناس فيه كثيرين ولا مطالب الحياة مرهقة ولا كثيرة .

كانت إحدى أشجار السنط .. وحيدة على باب الحارة ، وعلى مقربة منها
فضاء واسع وبحيرة راكدة الماء ، تظلل أغصانها الدور والطريق وإن زعموا أن
الشيخوخة قد أدركتها . وكنا نرى ذوائب فروعها على بعد عدة كيلومترات
لارتفاعها ، أما جذعها فقد كان فى الحقيقة موطن السر والسحر والجاذبية ..
هو الذى حببنا فيها ونحن أطفال ، وجعلنا ندور حولها باستمرار كأنها أم لكل
طفل فى الحارة . كان ضخما كثير التعاريج فيه مخائى وأخاديد وفجوات ،
وصنعت منه الطبيعة مقاعد صغيرة تعجب الأطفال . وفى الفجوات التى
تجمعت بينه وبين الأرض كان السحر والجاذبية . فمنه ينبعث نقيق الضفادع
فى الليالى المقمرة ، ونحن نلعب على مقربة من أمنا الرعوم .. هذه الشجرة .
وقد نتخيل أن دجاجة وضعت بيضها فى إحدى فجواته ، فنجد فى البحث
عنه ، أو ثعبانا لجأ إليه ، فنملا الفجوة بالماء ، أو نشغل عند بابها النار .

وحفرنا على الجذع أسماءنا بالمسامير ، وجمعنا منه الصمغ للحاجات
المدرسية ، وعلق المجاذيب فيه المصاييح فى مولد ولى الله ساكن القرية ، وسمعنا
تحتها الأذكار ، وعلق الجزار فيها ذبيحة يوم العيد ، وعلى الفرع المتطامن غير

العالي كنا نصعد ونحن آمنون لنشد فيها حبال المراجيح .
وفي فصل الخريف حين يرتفع ماء البركة قليلا بفعل الفيضان ، تتحول
تلك البقعة إلى شيء ساحر ، فتفرش الأرض الندية أزهارها الصفراء التي
تسمى زهرة الفتنة ، ويهيم تحتها نوع من الفراش كنا نطارده ونصيده .
وفي الليل تنعقد جنب جذعها حلقة الصبيان ؛ ليتحدثوا عن الأعياد أو
الأبطال والشياطين، أو ليخوضوا في تاريخ هذه الشجرة ، وكل منهم يزعم أن
جده هو الذي زرعها .

كانت على مقربة من دارنا ، ويخيل إلى أنني أراها أكثر مما يراها غيري —
ليس بعيني من النوافذ العليا ، بل بقلبي وإن أغمضت عيني .
كتبت على جذعها أول حرف تعلمته في المدرسة ، ثم نقشت عليه اسمي .
وعندما كان ينشب الخلاف بيني وبين أحد في الدار كنت ألتجأ إليها بدموعي ،
ولما كبرت ورحلت عن القرية لأتعلم في المدينة ، أحسست وأنا أفارق وطني
الصغير أنهارمز لكل شيء فيه منذ لحظة الميلاد حتى تلك اللحظة، فلما غابت عني
ذوائب فروعها كففت عن التلفت نحو قريتي .

ثم رأيت في المدينة أشياء جديدة بهرت عيني حقيقة وسحرت لبي . ولما
رأيت الهرم الأكبر شعرت بإحساس غلام في الثالثة عشرة من العمر أنه حقيقة
شيء ضخيم ... مثل . مثل تلك الشجرة التي تركتها في وطني على باب الحارة
وفروعها على مقربة من الدار ، لكنها كانت تمتاز عنه بأنها أكثر حنوا ، وإن
كان هو أكثر جيروتا وقوة .

وكانت سنواتي الدراسية تمر وأغيب عن القرية وأعود فأجدتها كما هي ...
كأنها في انتظاري . وجيل جديد من الأولاد لم يشب بعد عن الطوق

يفعل نفس ما كنت أفعله مع صبيان جيلي . يعلقون المراجيح في الفروع المتظامنة ، ويوقدون النار دفاعا عن فجواتها من دخول الثعابين ، ويستمعون إلى سمفونيات الضفادع في الليالي القمرية .

وكنت أحيانا أذهب لأفتش على جذعها عن الأثر الذي رسمته عليه بالمسمار . غير أن أغصانها كلما كبرت كانت توحى إلى بأفكار جديدة ، فكنت عندما أسمع أزيزها في الليل وأنا في إحدى العطلات أتخيل أنها تنظم شعرا . وكدت أشعر أن روحا غريبة تتقمصها بحيث تبدو وكأنها شيء حي . وفي عطلة الصيف كنت أجلس متكئا على جذعها وفي يدي كتاب أدب أو ديوان شعر ، وعلى الجانب المقابل لي بحيث لا أراه قد استلقى فلاح عجوز غارقا في النوم وكأنه يحلم بذكريات طفولته تحتها .. بالتالي .



وفي سنوات الحرب الثانية لم ينج الريف من الخراب .. كنت أيامها شابا في مقتبل الحياة قد فرغت توا من إتمام دراستي ، وبدأت أتأهب .. ل .. لأعيش .

كانت المدن الكبيرة تعيش تحت سلطان الظلام طوال تلك السنوات ، وكنت في إجازتي الطويلة والقصيرة ألبأ إلى الريف لأن ظلامه ليس بسبب إطفاء الأنوار بل لعدم إضاءتها .. كان طبيعيا إن لم يبدده القمر .

وكنت أجتاز الحقول بعد نزولي من قطار الظهر في شهر يوليه ، والشمس برتقالية حمراء ، وليس أحد بانتظاري ، وليس معي متاع ، فراعني أن أجد معالم الطريق متغيرة . رأيت مثل طائرا تتفوا كل ريشه فوق عاريا مطرقا مرتعشا .. كانت التربة ممدودة بين الحقول الخالية بعد حصاد القمح ،



وأغيب عن القرية وأعود فأجدها
كما هي .. كأنها في انتظاري !.

وكأنها شريان في جسم ناحل .. والمهم .. المهم جدا .. أنه لم يكن على شطها شجرة واحدة لا على اليمين ولا على اليسار ، وكدت لأعرف البقعة .. كأنها حسناء جزوا شعرها . لكنني أدركت السبب .. الحرب .. الوقود .. النار .. النار التي تريد شيئا تأكله ... وتمت وأنا أمسح عرقا متربا بمنديل أبيض من على جبينى : النار .. يقذفون لها بالبشر والشجر في هذه الأيام . وسكنت أفكاري لحظة وأنا أحس حرارة التراب على الطريق ، ثم خفق قلبي فجأة لأننى وصلت إلى القنطرة التي يجب أن أرى من عندها ذوائب الشجرة التي أحبها ...

سألت نفسي : هل باعوها ؟ . هل قطعوها ؟ .
وضحكت لأنه خيل إلى فجأة أنني طفل يستमित في الدفاع عن قطعة من الورق الملون . لكن خوفي زال تماما حين لاحظت لعيني ذوائبها الباسقة تعلو فروع النخل .



وفي ساعة القيلولة كنت منكما على جذعها وفي يدي صحيفة الصباح أقرأ أخبارا عن الحرب ، وبناقشني فيها فلاح عجوز يوازن بين هذه الأحداث وأحداث الحرب الأولى .

وشقشق فوق رأسي عصفور ، فرفعت رأسي إلى أعلى ورأيت شبكة الأغصان الخضراء وقد تخللتها زرقة سماء صيفية رائقة ، لكنني خفضت نظرتي لأن الفلاح الذي بجواري وجه إلى سؤال طابعه يحمل القلق :
— هل تعلم ؟

— بماذا ؟

— بماذا ؟ ألا تعلم حتى الآن ؟

— لا .

— ألم تر طريق المحطة ؟ هل رأيت عليه شجرة واحدة ؟ .

— صحيح .. لكن ... ماذا تعنى .. ؟

فتهد واعتدل في جلسته هاما بالانصراف ، وأشار إلى الشجرة وقال :

— جاء دورها .

ونفض جلبابه من آثار التراب وتركنى ومشى .

وبقيت وحدى جالسا أفكر ... أحسست بحزن عميق لكنه متصف
بالسذاجة. أحسست كأن عدوانا سيقع على وطنى ، ورأيتنى صبيا من جديد
يوقد النار على باب فجوات الجذع ليدفع الشعابين عن الدخول إليها .

وهبت نسمة عزيزة العبور فأزت الأغصان ...

سمعت حفيفها كأنه وداع، لكن ما ليشت أن هبطت إلى عالم الواقع لأسأل
نفسى :

— من الذى يملكها ؟

وعرفت الجواب ... إنها ليست ملك أحد معين . إن كل سكان الحارة
يدعون ملكيتها . إذن فلن تباع ... سيدب الخلاف بينهم إلا إذا اتفقوا على
قطعها .

وسافرت بعد أسبوعين .

وكان الوقت ليلا ليلة رحيل . فاجتزت تحتها شبكة من ضوء القمر ،

وسمعت فوق أغصانها حلم أحد الطيور ، وملأت أنفى رائحة أزهار الفتنة ،
وتذكرت الحرب .

ومكثت في المدينة ثلاثة شهور ثم عدت في إجازة قصيرة من نفس
الطريق .

وعند القنطرة .. خفق قلبي .. رفعت رأسي لأفتش عن أول معلم من
معلمي ووطني فلم أجد ذوائب الأغصان . كانت السماء مكشوفة هناك كأنما رقعة
الفضاء قد اتسعت ، وأحسست أنني سأتوه . سأتحول إلى قرية أخرى
لأبحث عن دارنا ، والشمس تنحدر نحو المغيب ، لكنني قلت كأنما لأعزى
نفسى :

« النار .. إنهم يرمون لها بالبشر والشجر .. وليس الشجر أغلى من
البشر » . وتهدت وأنا أعبر قنطرة أخرى ، وأنظر إلى شجرة صغيرة يسقيها
فلاح على رأس حقل .

وفي الليل عندما كان القمر يتلألأ ليدل الطائرات المغيرة على الأهداف في
العواصم ... كان السكون يشمل الريف ، ولم يكن هناك أغصان يتفد من
بينها ليلقى شبكة من النور على البقعة الممهودة ، وكان هناك فجوة كبيرة مكان
الجذع ، حفروها ليأخذوه سليماً ثم تركوها بلا ردم ، لأنها ذهبت منذ
أسبوع ، وكانت مياه الفيضان قد ارتفعت فملاً الرشح موضع الشجرة .
جلست على حافته أستمع إلى نقيق الضفادع ، وأرى صورة القمر وقد
انعكست فيه كأنه ماء بحر ، وعلى المرأة الصغيرة طافت ذكريات أطفال
ورجال ، حتى أفقت على صوت الفلاح الذي كان يتحدثني في المرة السابقة
وهو يقول :

— باعوها يا سيدي ... باعوها ... ليتهم يتفقون على كل شيء بسهولة كما
اتفقوا على قطع الشجر وقتل البشر .

مَعْرَظَةُ النُّورِ

« وعرف أن هناك قوة عليا تعطي كل القوى

وهي التي منحت طمأنينة القلب ونور العين»

كان يذكر تاريخ حياته كأن كل شيء وقع أمس ...

كان في حجرة صغيرة في مستشفى صغير ، جميل هادئ .. لكن .. كان جماله شيئاً لا يراه إلا الأصحاء ، أما هو فكان لا يرى إلا جمال العافية على وجوه الذين يزورونه ..

وحين طافت به ذكريات الماضي تمنى أن يعود صبياً كما كان ، يجري على تراب القرية ، نعم ... وبذلك تعود إليه شجاعته في تحمل الأمراض التي كان يستمدّها من طبيعة سنه ، وطبيعة طمأنينة الإيمان التي كانت لا تفارق وجه أمه المستطيل الناصع البياض ، وهي تجري كفها على خده في ابتسام واهن وتقول له :

— لا تخف يا بني ... لا تخف ؛ فإن قلبي مؤمن بأن الله سيشفيك .

وكان في هذه الفترة قادراً على أن يطمئن بواسطة أمه ، أما اليوم ... في وقته الحاضر ... في هذه الفترة التي يرقد فيها في المستشفى الجميل على السرير الصغير فإنه عاجز .. عاجز .. تماماً .. عن أن يطمئن بقلبه هو .. أو قلب الطبيب العظيم الذي يشرف على علاج عينه بعد إجراء العملية فيها .

وأخذ يسأل نفسه بعد أن أن أغمض عينه الأخرى وسبح في الظلام :

— ترى هل لو كانت أُمِّي موجودة ... هل كنت اليوم مستطيها أن

اطمئن بواسطة قلبها ؟

وتأوه ، وتقلب في فراشه ، وأمسك صحيفة الصباح ليقرأ العناوين الكبيرة وليعرف كيف تسير الدنيا . وبدأت الخطوط مثل شعب الأخطبوط ملتوية غير واضحة فتألم . وأخذ يتذكر حادثة كبيرة وقعت لنفسه عينه وهو صبي ، وقبل أن يتعلم ويصبح طبيباً باطنياً لا بأس بحاله .

كانوا فريقين من الصبيان يلعبون لعبة خطيرة ... هي لعبة الحرب . أسلحتهم أعواد من حطب الذرة الطويل ، وميدانهم الجرن الواسع الواقع أمام الدور . وكان الطبيب (قائد فرقة) .. ولبسته الشجاعة ، وحفزته الحماسة ، فهجم متقدماً وهجم وراءه الصبيان . وكانت عيدان الحطب مشرعة نحو الأمام كأنها رماح تطعن . وخاف العدو ، وصمم قائدهم أن يسدد له طعنة .. فجاءت في الصميم ... أين ؟ في نفس عينه .. التي يرقد بها في المستشفى اليوم ويشرف على علاجها طبيب كبير ...

وابتسم الطبيب المريض ، حين ذكر أن الحرب وضعت أوزارها في الحال ، وأنه في اليوم التالي رأت أمه عينه وكأنها كأس من الدم ، وكانت شديدة المخاوف نحو أمراض العيون ، لكنها بعد أن سلمته ليد طبيب صغير الشأن كان يعالج كل الأمراض في المركز — أسلمت أمرها إلى من خلق الداء والدواء ... إلى الله . واستطاع هو يوم رأى الطمأنينة على وجهها ، والسلام يفيض من القلب والملاح . استطاع أن يطمئن إلى كل شيء ...

وتقلب وتهد وسأل نفسه : هل لو كانت أمه موجودة اليوم لكان في قدرته أن يطمئن بواسطة قلبها ...



واتاه الجواب بعد أن انتهى الرنين المبحوح الذى يرسله جرس فى أحد
الممرات ، وقال الجواب : لا .

وتأسف ، وهز رأسه ، وأغمض عينه الأخرى ، وتخيل فى عالم الصمت
والظلام بعد المسافة بينه وبين الطمأنينة ، وتوالت على رأسه الخواطر حين
تذكر بعد المسافة ، فتذكر الصواريخ التى يطلقونها فى الفضاء ، والكواكب
التي أصبحت هدفا ، والأفلاك والنجوم .. والكون .. الكون العجيب
الذى أثار العلم وهز إيمان العلماء .. والإيمان الذى يبحث هو عنه الآن ليكون
على يقين من أن النور سيعود لعينه ، وأنها لن تصبح مثل النافذة المقفلة فى
واجهة البيت .

وتنهذ لأن هذا الشيء الذى يوجد فى القلوب منحة سماوية ، من يد قوة
أعطت كل القوى .. المغناطيسية والجاذبية ونظام الأفلاك ، وهى التى تملك
أن تعطى طمأنينة للقلب ونورا للعين ...

ودخلت الممرضة تسأل بوجه أصبح الابتسام صنعة له :

— هل تريد شيئا يا دكتور ؟

وبلع ريقه ، ونظر طويلا ثم قال :

— نعم .

— نعم ؟ أمرك .

— أجلسى قليلا . هل لك أم ؟

فهزت رأسها :

— لا .

— ماتت ؟

— بعد ميلادى بشهرين .

— وعندما كنت تمرضين من كان يجلس إلى جوارك ؟

— لا أحد .. لكننى لا أخاف المرض ولا الموت فى هذه الفترة .

— لماذا ؟

— لأننى كنت أشعر حين أخذت منى أى زوجة أى ، أنه لا أب ولا نصير

ولا معين إلا هو ...

(وأشارت إلى السماء) عن إذنك . إن جرسا يطلبنى .

وفكر الطيب :

« إن أحسنا أنا محتاجون إلى شيء ما أحسنا بوجوده » وتنهّد، وقال

بمخجل شديد :

— « آه ... إننى محتاج إليك يا رب » .

لكن لماذا كان خجلان ... ؟

كان يسخر بينه وبين نفسه من بعض المرضى الذين يحاولون أن يقاوموا

باليقين كلمة قالها العلم فى مرضهم . وحضر إلى ذاكرته شخصية مريض

بالكليتين كان يشرف على علاجه ، وأنذره يوما أن مضاعفات خطيرة

ستحدث له إذا لم يسر على النظام المطلوب ، فابتسم له بوجهه الأصفر وقال

له : « إن الكلمة الأخيرة ليست لك » .

وفهم ما يعنيه ، لكنه هز كتفيه وأغمض عينيه ، وهو لا يذكر إلا قوانين

المادة .

وعاد يتمم بعد أن فتح عينه الأخرى :

« إننا نحس وجود كل شيء نحتاج إليه ، وكلنا محتاجون إلى الله ... » .
ودمعت عينه السليمة وأكمل : « وأنا أشد الناس حاجة إليك
يا ربى .. » .

ولم يعد بعد ذلك يفطن لشيء ، بل كان فى مكان فسيح فيه غلمان يلعبون
لعبة الحرب ... بطريقة رديئة كما يفعل الكبار ... تماما ... و غلام عينه
مجروحة من طرف عود ، وأم بيضاء الوجه مستطيلة تبتسم فى يقين بعد أن
أسلمته لطبيب رومى يحقن المرضى بالمرارة بنفس الحقن التى يعطيها للمرضى
بالقلب ...

كان يحلم ...

واستيقظ على يد تدق الباب برفق ، وفتح عينا واحدة فرأى طبيب
العيون ، ووراءه ثلاثة ، يدخل فى أبهة العلم وصولة المادة ، وسأله فى قلق
مكتوم :

— هيه .. وكيف الحال اليوم ؟

— الحال ؟ .. كل ما هناك أنى أحس بنور يغمر قلبي . فأجاب مبتسما فى
شبه دعابة :

— أرجو أن ينتقل إلى أعلى ... إلى عينك .

— يارب .

ورفع الطبيب الغطاء بعد ثلاثة أسابيع ، وصرخ الطبيب ، الطبيب
المريض لا الطبيب المعالج ، صرخ قائلا :



وتنهـد ... لأن هذا الشيء الذي
يوجد في القلوب .. منحة سماوية

— دكتور ... دكتور ... أننى أرى وجهك بعينى المريضة .. لا ..
ليس .. وجهك .
كان يتكلم بلهجة محمومة فيها فرح وحزن وضحك وبكاء ...
واستطرد ...
— لا ... ليس وجهك ... إنه وجه أمى الحنون المطمئن .. لا .. بل إنه
وجه اليقين .. وجه الله .

هَذِهِ السَّعَادَةُ

كانت الفرحة تغمر قلبه على الرغم من أنه ملئ بالقلق ، وهو يجلس بعيدا عن الصلاة ينظر إلى باب الحجرة محبوس النفس ، منتظرا بين لحظة وأخرى أن يفتح الباب عن وجه سيدة تلقى إليه بكلمة واحدة ... لكن هذه الكلمة الواحدة عاش بانتظارها خمسة عشر عاما على التقريب .

وخيم على الغرفة الموصدة سكون شامل ، فاضطجع محمود على كنية قريبة من الشباك وأخذ يتسلى بالنظر إلى الحارة التي غطاها الظلام ، واسترسلت أفكاره فذكر حوادث قديمة وأخرى حديثة ، قطعها عليه بعد لحظات صباح ديك في حظيرة على أحد السطوح ، أعقبته دقائق ساعة حددت الثالثة صباحا ، فتنهد والتفت نحو الباب ، وما كاد يركز عليه بصره حتى سمع أنه خفق لها قلبه وساد بعدها الصمت . ثم ... انفرج الباب عن وجه سيدة ضاحكة الأسارير نادت بصوت مهموس ممدود فرحان ساحر وهي تقول :
— محمود .. محمود .. مبروك .. غلام .. فكر في اسم جديد وجميل .

وأقفلت الباب وتركته يتخيل . فرجع بذاكرته نحو أحب مكان إليه وأعز ناس عليه ، وترقرقت في عينيه دموع الفرحة والأسى ، فقد ذكر داره التي تركها منذ أكثر من سنة قبل أن يأتي إلى مدينة دمنهور ويشغل في أحد محالج القطن . وكانت سنة تسعة وثلاثين عاما ، نخل البال موفور الصحة يملك قطعة أرض تزيد على فدانين وتقع بين مزرعتين كبيرتين لاثنين من الإقطاعيين ، وعلى رأس قطعة الأرض الصغيرة بنى دارا من الطوب اللبن شاركه في سكنها أبوه وإخوته الصغار ، وبقيت أسرة هذا الفلاح الصغير بين

المرعتين الكبيرتين وسكانهما المترفين أشبه شيء بتأنيب الضمير .
نعم .. كان يتذكر كل هذا حين انفتح باب الحجرة مرة أخرى وأطل
منه الوجه الصبوح الباسم ، وقالت صاحبه :
— اتفضل .. ادخل لترى ابنك ، (ثم أكملت وهي في طريقها إلى
الخارج) أما أنا فسمهمتي انتهت .

وقبل الأب وجها ظل ينتظره خمسة عشر عاما . وجها صغيرا مستديرا كأنه
ريال من الفضة يصرخ بلا وعى ، ثم رفع وجهه إلى زوجته فرأى الفرحة قد
أضأت وجهها الشاحب ، فجلس على كرسي قريب منها وسألها في مرح قائلا :
— هيه .. ماذا تريد أن نسمي مولودنا يا زينب ؟

فرقصت على وجهها معان غامضة لم يتبينها زوجها ، ثم قالت :
— نسميه .. نسميه .. ماذا نسميه ؟ .. نسميه عادل .

فدق زوجها كفا بكف وانفجر ضاحكا . أما هي فقد كانت تغالب
الضحك وتريد أن تمنعه لأنه يؤلمها . وكان المولود مسترسلا في البكاء فغطى
جو المكان شيء متناقض لكن السعادة كانت تفوح من أرجائه .. وبعد لحظة
قال الزوج :

آه لو كنا هناك وعملناها ، لو قدر لنا أن نخلف هذا الولد الجميل .. ثم
نسميه عادل .. لو فعلنا ذلك يا زينب لحدث لنا ما حدث لحسن أبو الغيط .
وضحك .

فسأله زوجته لأنها نسيت :

— وماذا حدث لحسن أبو الغيط ؟

فأجابها الزوج :

— كان أحد أنفار الباشا صاحب العزة القبلية ، وكان وحيد أمه ، فلما أعفى من القرعة العسكرية لأجلها زوجته بسرعة ، وطلبت من الله أن يخلف بسرعة ويكون المولود ولدا ، واستجاب الله دعاء الأم ، ومن فرط فرحتها سميت ابنها على اسم ابن الباشا .. سمته عادل . ولقيت ابن الباشا على الطريق ذات صباح ، واعترضت طريق فرسه وأخبرته الخبر ، وكانت رافعة وجهها إليه تحدّثه ، ولما انتهت من الحكاية رأت عادل بك يتحسس جنبه فأدركت أنه سيمنحها هدية لطفل سمته على اسمه .. خمسة جنيهات على الأقل .. لكنها فوجئت بأنه ضربها بقدمه التي في الركاب ، فوقعت على الأرض ومشى بحصانه ..

ثم سكّت الأب .. وحملق المولود الصغير في السقف تحت عيني أمه كأنه يرى هذه الدنيا الجديدة . وخيم سكّون ، ثم قالت الأم :
— لقد تركناها لهم . نعم .. ليشبعوا بها . فقد كانت أرضنا بين عزة والد عادل بيه والعزة البحرية .. لكن الله هو الذي أراد هذا يا محمود . فلو أن صاحب العزة البحرية لم يبع جزءا من أرضه لوالد عادل بيه ، لما دخلت أرضنا وسط أرضه .. و ..

وغنقتها الدموع حين تذكرت موطنها ، والحقول التي شهدت أزهي أيام شبابها ولقاءها هي ومحمود ساعات العمل ، أيام دب الحب البريء إلى قلوبهما قبل الزواج . ثم .. ذكرت الليالي الأخيرة لهما قبل الهجرة ، فسمعت زوجها يقول :

— هل أنت حزينة يا زينب ؟ .. لا تحزني .. لقد عشنا هناك خمسة عشر عاما بعد الزواج نطلب من الله الذرية ، فلما انتقلنا إلى دمنهور حقق الله



هل أنت حزينة يا زينب ١٩ .. لا تحزن

رجاءنا .. ومع ذلك ..

وسكت وتهد . وقام إلى الطفل وقبله ، ونظر إلى زوجته قائلاً لها :
— نحن لا نعرف ماذا سيحدث غدا . لقد سمعت الباشكاتب يقول اليوم
في المحلج كلاماً يشفى النفوس ، سمعته يتحدث عن الإصلاح الزراعى ويقول
إن الأرض ستوزع على الفلاحين ، فتذكرت دارنا يا زينب ... والأرض التى
اشتراها والد عادل بيه منا بالقوة ... أليس من الجائز أن يتحقق هذا فى وقت
قريب ؟

فقالت الزوجة بشبه عتاب :

— كان من الممكن أن تعيش هناك لولا طبعك يا محمود !
فأجابها نائراً :

— لولا طبعى ؟ .. هل كان من الرجولة أن أسلم له بطلبه الظالم من أول
كلمة يقولها ؟ كان ممكناً بالنسبة إليه أن يعطينى أرضاً بدل أرض . أى قطعة
متطرفة فى عزبته .. لكنه كان يتحرش بى .. هو فى الحقيقة كان لا يريد
وجودى هناك ، بدليل أنه لم يطرد أبى ولا إخوتى ، وأنت تعرفين السبب
يا زينب .. السبب هو أنتى علقت فى عدة مناسبات على حادثة العجوز
المسكينة أم حسن أبو الغيط ، وقلت فى عدة أماكن أنه لو كان يفهم لسه أنه
الناس يطلقون اسمه على بنى آدم .. على الأطفال الذين يولدون .. لكن
عجرفة عادل بيه وضيق فهمه جعلته يأنف أن يسمى حسن أبو الغيط ابنه على
اسمه ، فركل العجوز برجله وهى فى الركاب ، فلما قابلنى عادل بيه وسألنى
عن الحادثة رأيت خلفه أحد أتباعه ، وقبل أن أجيب نظرت فى عيني الرجل
الذى خلفه فعرفت أنه من شهود الحادث ، فلم تن على رجولتى ،

فاعترفت .

وسكت محمود .. ثم قام نحو النافذة وأخذ قلة باردة الماء وشرب منها ، ثم عاد ، وقال بصوت حزين :

— وبقية القصة ... أنت تعرفينها ...

لكنه ما لبث أن ضحك فجأة وقال :

— ولماذا نحزن ؟ لقد من الله علينا بسلام بعد حرمان طويل .. اسمعى

يا زينب .. اسمعى يا بنت .. أليس من الجائز أن يكون هذا الولد طيبا .. أو

مهندسا .. أو ضابطا .. أو أى شخص عظيم .. ؟ الدنيا تغيرت يا بنت ..

الدنيا تغيرت صدقيني ؛ فإن الباشكاتب يؤكد هذا كل يوم .

فتأوهت زوجته وانقلبت على جنبها وقالت له :

— وجائز أن نعود إلى بلدنا ومعنا ولدنا .. يا سلام لو وقعت عليه عين

أمى .. لو رآته لذهب عنها المرض .

كان أطفال البيت الصغير الذى ولد فيه هذا المولود يحتفلون بسبوعه ،

وكانت الشموع والزغاريد والضجيج تملأ المسكن حين دق على باب الشقة

طارق يسأل :

— محمود أبو الغيط موجود ؟

فقال طفل صغير وهو يرفع الشمعة فى وجه الطارق :

— نعم ... موجود .

وخرج الأب ليرى المسألة ، فإذا به يجد نفسه وجها لوجه أمام أخيه

الصغير وكانت اللفظة ظاهرة على وجهه ، فلما استوضحه الخبر عسرف

أن أمورا عظيمة قد جدت في القرية ، وأن ما كان يتحدث عنه الباشكاتب ،
قد حققته الثورة ، فسأل محمود :

— وماذا تريدون مني ؟

فأجاب أخوه :

— يجب أن ترجع إلى البلد ... ستأخذ خمسة أفدنة في عيد الثورة .

فوضع محمود كفيه على رأسه كأنما قد صحا من غيبوبة وقال :

— خمسة أفدنة من أرض عادل بيه وأرض الباشا ؟ .. كل هذا يحدث

بسرعة ؟ .. يا سلام ... وأعود ومعى ولد أسميه أى اسم أختاره دون أن

أخاف ضربة برجله وهي في الركاب .. هذا والله شيء عظيم ...

وسكت ثم رفع صوته يسأل :

— في أى شهر نحن الآن يا أولاد ؟

فجاءته أصوات صبيان يتعلمون في المدارس :

— في شهر يوليه يا عم محمود .

فهمهم كأنه كان لا يعرف ، ولما انفض الناس قرروا أن يسافروا في أقرب

وقت .



كانت الشمس مائلة إلى الغروب ساعة نزل محمود هو وزوجته وابنه من
القطار ، وعلى مسافة كيلومتر واحد كانت مباني القرية رابضة .. وقلبت
هذه الأسرة نظرها في كل ما حوّلها كأنما ولدت كل أفرادها من جديد ، وكان
الطفل الصغير موضع القبلات والحب والتحية من أقارب الأب والأم ، ولم
يتاموا من الفرح .

وعندما أصبح الصباح سأل الجد في حماسة عن صحة المولود ، فقال
أبوه :

— لقد ذكرتني يا أبى .. لقد نسينا أن نقيّد ابنتنا في دفتر المواليد ونحن في
دمهور ... وما دام الأمر كذلك فسأذهب لأقيده هنا .. حيث قيد اسم أبيه
واسم جده .

وبعد ساعة كان الصراف يفتح الدفتر الكبير ليكتب اسم المولود الجديد :
عادل محمود أبو الغيط . ونظر الصراف إلى الوالد نظرة فهم معناها ذكرته
بمحادثة المرأة العجوز ، فابتسم له محمود في فرح وقال له : ولا تنس يا حضرة
الصراف أنني سأملك خمسة أفدنة في هذا الشهر ... سلام عليكم ...
مال ... وعيال ... هذه هي السعادة .

سِفِينَةُ النَجْاةِ

تبعد محطة « التوفيقية » عن قرينتا بضعة كيلومترات ، ويتحتم على المسافرين إلى مدينة طنطا من أهل قرينتا أو القرى القريبة أن يركبوا إلى هذه المحطة ، ليأخذوا القطار منها إلى المدينة .

وكانت فرحتي عظيمة في ذلك اليوم ... يوم صحبت أوى إلى المحطة ليركب منها إلى مدينة طنطا ، وكانت مهمتى الرئيسية في هذه الرحلة هى أن أعود بالركائب إلى القرية من جديد ؛ لأنه كان من المقرر أن يقيم أوى في المدينة ثلاثة أيام كاملة .

كنا في أخريات النهار والفصل شتاء ، والطريق مرتفع عن مستوى الحقول ، وتكثر الأشجار على جانبيه ، والدواب تسير الهوينى وأنا وأوى والجو مشمس ولو أنه مائل إلى البرودة .

وكان أوى سعيد النفس منشرح الصدر في هذا النهار ، يدور معظم حديثه عن حسن طالعه في صفقة القطن التى باعها ، فقد بارك الله مرتين أولاها في المحصول والأخرى في السعر وهو لذلك مسافر إلى المدينة ليشتري لكل فرد من أفراد أسرتنا شيئا ... وأهم الأشياء التى سيشتريها ثياب من الصوف والكستور ، وملابس داخلية ، وقرط من الذهب لأختى الصغيرة .

ونظر أوى نحو الغرب يطالع قرص الشمس الذى يخلق ناحية الأفق ، فرأيت على فمه ابتسامة سعيدة ... سعيدة جدا ... عرفت سرها بعد أن صرت أبا . فقد تعلقّت أختى الصغيرة يومئذ في عنقه وقبلته في خده الشائك ، حين

أعلن لها أنه سيهدى إليها قرطا من الذهب بمناسبة بيع محصول القطن .
وقبل أن تتلاشى هذه البسمة على ثغر ألى سمعته يقول :
— اسمع يا حسنى ... أظن أنه يجب علينا أن نجتهد فى السير شيئا ما ...
يجب أن نحث الدواب لأننى أخشى أن يسرقنا الوقت ويفوتنى القطار ...
وحرك كل منا عصاه وألهب بها كتف الدابة التى يركبها .
وكانت وجوهنا نحو الشمال ، فكنا نحس مقدار برودة الجو على أطراف
أنوفنا لأن رعوسنا كانت مغطاة بالتلافيع .



وكان على أن أعود بالركوبتين بعد أن تحرك القطار بألى ، وكان يلوح لى
بكفه من النافذة فى فرحة من يسافر إلى الأرض المقدسة . وحمل إلى الهواء
صوتا أعلى من زفير القطار وهو صوت ألى يقول لى :
— حسنى ... لا تنس أن تقابلنى يوم الجمعة فى قطار الظهر ، مع
السلامة .

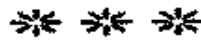
وركبت ركوبة وسقت أخرى أمامى . وبعد أن غادرت مبنى المحطة بربع
ساعة لاح لى الطريق خاليا كئيبا . ولم يكن الوقت موسم زرع ولا حصاد
فاستبمع ذلك ندرة الناس فى الحقول . ومالت الشمس للمغيب فخيلى إلى من
فرط وحشتى أنها غربت قبل الميعاد . ولم أكن أسمع إلا وقع حوافر الدواب
على الجزء الجاف من الطريق الذى لا يزال يحمل آثار مطر قديم .
وحاولت أن أستعيد فكرة مسلية ... وترنمت بأغنية بعض الوقت ، ثم
وجدت نفسى وقد كفت عن الغناء لأن الوحشة غلبتلى على أمرى .
وكان على أن أقطع سبعة كيلومترات بعد غروب الشمس ، ولم يكن

في ذلك من بأس فأنا شاب ريفي لا يضيرني ذلك ، لكن المشكلة كانت في التغير المفاجئ الذي لحق الجو .. فقد اشتد هبوب الريح حتى كنت أمسك نفسي على ظهر دابتي ، وأراقب فعلها في تمايل النخل واضطراب أوراق الشجر .. وزحف من ناحية الشمال في مديرتنا المعروفة بكثرة الأمطار — سحب كثيف زاد من حلكة الليل ، ورسم من أشباح الشجر هياكل مخيفة . قلت في نفسي وأنا ألهب ظهر ركوبتي بالعصا: كل شيء يحتمل إلا الأمطار في هذه الليلة ، ذلك لأن الطريق كان حديث عهد بالمطر ، فإذا سقطت السماء مرة أخرى فإنه سيتحول إلى طريق مرصوف بالصايون لا تستطيع القدم الواعية ولا العين البصيرة أن تحفظ توازنها عليه . فلما اشتدت مخاوفي لم أغن ولم أصفر بغمي ، بل أخذت أهمهم بالدعاء .

غير أن الظروف جميعا كانت أقوى من دعائي فأخذت السماء تمطر ، وكنت أسمع وقع حبات المطر على فروع الأشجار كأنه صوت النار ترعى في الهشيم . وتبللت ثيابي وقلّت تبعاً لذلك سرعة الدواب ، فأصبحت فرصة تعرضي للمطر أطول بطبيعة الحال . عند ذلك شرعت أفكر بسرعة وأزن المعركة كما يفعل القواد ، فهل كان من الممكن أن أنحدر من على الطريق إلى إحدى القرى فألوذ بأي مكان حتى الصباح ؟ وهل هذا أفضل لي من مواصلة السير في المطر والظلام ؟

ووجدت الفرض الأول شبه محال لأن الطرق الفرعية المؤدية إلى أقرب قرية ربما كانت مسدودة بالوحل ، وحتى لو انتهى هذا الفرض فإن طرق أبواب الدور في القرى في مثل هذه الليالي عمل غير ميسور ، لذلك قررت نهائياً أن أواصل سيرى حتى أصل إلى قريتي .

غير أن الركوبة التي كانت تحت ألى والتي أسوقها أمامى بدا لها أن تعرج إلى شجرة على ناحية من الطريق وتقف تحتها كأنما لتستظل من المطر ، فتبعها طبعاً الدابة الأخرى . فلما صرت وراءها ضربتها لتتحرك غير أنها احتملت أخف الضررين وأضربت عن المشى . وكان المطر تحت الأشجار مضاعف الكمية ، فأحسست أن فم قرية قد انفتح فوق رأسى ، وعند ذلك جن جنونى وصرت أضرب الدابة بكل ما أملك من قوة حتى تحركت وتحركت خلفها .



لست أدري ما الذى حدث بعد ذلك . ولماذا أنا هكذا ؟ .
أخذت أنظر حولى وأتفقد الأشياء ، فإذا بكل شىء حولى مرتفع شاهق حتى الدابة التي أركبها .

أحسست فجأة أننى على الأرض ... على أحوال الطريق . فقد انزلت ركوبتى فسقطت لى ، ثم استطاعت أن تنهض فى الوقت الذى عجزت أنا فيه عن النهوض ، واستجمعت حواسى بسرعة فخفت وأنا لا أزال على الأرض أن تسير الدابتان فتضلا منى فى الظلام ، فتحاملت واقفا وأنا أدعوها للوقوف ، وكان القدر فى صفى فلم تتحرك واحدة منهما .

غير أن شيئاً لم يكن فى حسابى ظهر فى اللحظة التي حاولت فيها الوثوب إلى ظهر الركوبة لأستأنف سيرى ، فقد أحسست كأن جسمى محطم ... كأن شيئاً قد استنزف قواى ؛ كأننى خارج من معركة الحمى ، ثم أخذت مفاصلى فى الارتعاش فتلفت حولى بحركة تلقائية لأبحث عن شىء .

كانت الطبيعة لم يفارقها غضبها بعد ، وكنت فى هذه اللحظة بين براثنها كقطعة الخشب فى مجرى الشلال . وعرفت ليلتئذ كيف يفرق الناس وهم (الضفيرة السوداء)

على الأرض ، وكيف يجمد البرد أعضاءهم فيموتون ، وذكرت أبى فى مدينة
طنطا والمهمة التى سافر من أجلها .. سافر لكى يشتري لنا كسوة الشتاء ..
ثم ذكرت أمى وإخوتى الذين ينامون فى دفاء الدار تحت غطاء من الصوف
وبعد عشاء ساخن ...

ذكرت كل هذا وأنا أرتعد وأتلفت فى كل اتجاه أبحث بالغريزة عن سفينة
نجاة .

وفجأة ... وتحت مستوى الطريق رأيت شعاعا من النور يلمع وراء باب
فأيقنت أن هناك كوخا يسكنه إنسان . وذكرت بيت العمدة أعلى بيت فى
قريتنا ، لكننى رأيت هذا الكوخ فى هذه اللحظة أعلى منه بكثير ، وسبجت
الركوبتين وانحدرت إلى هناك حيث وقفت أناذى .



وما لبث الباب أن انفتح برفق وحذر وأطل منه وجه رجل عجوز ، وقال
بصوت واهن :
— تعال يا من تنادى .. لا أستطيع أن أفتح الباب أكثر حتى لا ينطفئ
المصباح .

فقلت له :

— إن معى دابتين .

فناولنى جبلا ، وقال :

— قيدهما به .

ثم دخلت .

لم أحس بالدفاء فى حياى أوضح مما أحسسته فى هذه الليلة . كان



كان في زاوية الكوخ آثار نار وعلى
الأرض حشية من شوال حشى بالقش

في زاوية الكوخ آثار نار خاية وعلى الأرض حشية صنعت من شوال ملىء بالقش ، وليس هناك غطاء إلا شال قديم . وفحصني الشيخ بعينين ضعيفتين ثم تحسس ملابسي ، ثم قال :

— لا حول ولا قوة إلا بالله . إخلع كل هذا وإلا مت . وأوقد ناراً بما بقي من حطب ، ولغني في الشال حتى جفف لي ملابسي على النار ، ثم ألبسني وصنع لي شاياً وشربت منه حتى زالت الرعدة .

عندئذ فقط بدأت أذكر الأشياء بوضوح وبدأت أدرك كل ما حولي ، فعرفت أن هذا الشيخ يقوم في حراسة حقل من الخضروات كان مليئاً بالكرنب والقصب ، وأنه قضى عمره في الحقول . وسألني : ألا تزال تحس البرد ؟ فقلت له : لا يا عمي . ثم استدركت : وافرض أنني لا أزال أحس بردا فهل تملك حطباً ؟ فابتسم : نعم إن فوق الكوخ كثيراً من الحطب ، وإذا كان لا بد ففي استطاعتي أن أخرج من أسفله أعواداً لم يصل إليها المطر . ثم سكت كأنه يفكر ، ثم استطرد كأنه تذكر . وإذا تعذر علينا ذلك فإنني أفك هذه الحشية . إن فيها قشاً يصلح للنار ، أشعله لتدفأ ، وعندما تشرق الشمس فإننا سنجد قشاً غيره . وضحك سائلاً : هيه ... ألسنت ترى أن الأمور سهلة ؟ سهلة جداً ؟

فملت عليه وقبلت كتفه ، فكأنني قبلت قطعة من الإيمان ، وكان لا بد لي أن أبيت معه فتقاسمنا القش والشال القديم ، لكنني لم أنم طول الليل .



ومالبت يوم الجمعة أن جاء ، ورجعت إلى محطة التوفيقية بركوبتين لأقابل أبي ، وكان اليوم دافئاً غير مطير ، وامتنطى كل منا دابته ، وأعطاني أبي

« سبتا » صغيرا كان فيه ملابس لى ظل يحدثنى عنها طول الطريق ، ويصف لى ورقة القرط الصغير الذى اشتراه لأختى .

ثم ما لبثنا أن حاذينا الكوخ فوقفت ، سألتنى أوى عن الأمر فسردت عليه وأنا أشير نحو الرجل العائد وهو يحمل فأسا — سردت عليه حوادث ليلتى المعهودة ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، ونزل إليه يحمل لفافة ، وعندما قدم محتوياتها من الملابس للرجل أخذ يتكلم بشكر ودعاء وحياء ودهشة ونخجل . كان شحنة من الانفعالات لكن كلها طيب . لكن أوى قال له :

— لقد دفأت ابنى بسقفك ونارك وغطائك وهممت أن تشعل النار فى فراشك لتدفئه ، فلو كنت تملك كما يملك غيرك ما بخلت على أحد .. فلماذا لا تقبل هذه الهدية ؟

فأخذ الشيخ يقلب اللفافة بين يديه ، وعلى شفثيه ابتسامة ردتة إلى عهد الصبا .

الليلة الأولى

بدأت حياتى طبييا فى الأرياف ... فى المركز الاجتماعى لقرية (س)
الواقعة بعيدا عن البندر وعن شريط السكة الحديد ، فأتاح لها موقعها عزلة
فريدة .

وأحسست بكثير من الغربة فى الليلة الأولى التى نزلت فيها هذه القرية ؛
لأننى ولدت فى المدينة وقضيت طفولتى وصباى وشبابى فى حارات القاهرة ،
ولم أر الريف إلا فى الرحلات أو على شاشة السينما . لذلك كله قضيت الليلة
الأولى فى حجرة نومى فى المركز مسهدا لا تغمض عيني .. وأستمع بقلب
خائف إلى حفيف الأشجار فى الحديقة والملاعب ، وأتأمل النور الخفيف الذى
يضىء حجرتى وقطع الملابس المعلقة وكأنها أشباح تجمدت ظلها على
الجدران .

وكنت قد تناولت عشاء أحضرته معى كان آخر عهدي بالأيام التى عشتها
فى ظلال أسرة ، وعلقت على الحائط صورة تذكارية لأبوى ، وعلى مقربة منها
تجاه الشباك آية قرآنية كتبت بخط كبير وضعتها أمى بإطارها وسط ملابسى فى
الحقيبة .. وتلفت فى كل مكان شأن الغريب ، وأقفلت باب الحجرة وآويت
إلى فراشى ولكننى لم أنم ..

وأخذت ذكريات كثيرة تطوف بخاطرى وأنا فى المكان الجديد ، أهمها ..
أن الأمل الأكبر والأمنية العظيمة قد تحققت وصرت طبييا ... تحققت بالنسبة
لأمى ؛ لأنها كانت سيدة كثيرة الأمراض عاشت تحلم بقرب الطبيب وعطفه

وإخلاصه ، فابتليت إلى الله أن يهبها هذا في ابنها . فلما دخلت كلية الطب ادعت أن نصف أمراضها قد اختفت ، فلما تخرجت وعينت في الأرياف بعيدا عنها عادت حالها إلى ما كانت عليه ، وكنت وأنا في فراشي في هذه الليلة أحلق في وحدتي إلى الآية القرآنية المعلقة على الحائط وكنت أذكر دموعها وهي تودعني .

نعم ... ومن خلال صورتها انبعثت صور أخرى ، تخيلتها الناس لا أعرفهم يرقنون في الحجرات الريفية الخالية من النوافذ فرارا من طلائع الشتاء ، وعرفت نماذج منهم في المستشفيات أيام الدراسة ، ثم أخذت أتصور منهم سحنا مختلفة حتى كاد النوم يغلبني ... بل أظن أنني نمت .. غير أني حين عدت إلى اليقظة سحبت ساعتى من تحت الوسادة ونظرت فيها . كان الليل لا يزال في أوله ... فقد كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة إلا بقليل ، ولو أن الأشجار في الخارج تمز من زمن بعيد كأنه دهر ، فقلت في نفسى : يا إلهى .. ما أطول الليل في الريف !!

وجلست في فراشي أفكر في شيء أعمله ، ثم عدلت وصممت على أن أنام ، وما أن استلقيت وكدت أدفع مكاني حتى راودنى خاطر غريب ما لبثت أن ضحككت منه ، فارتفع صوت ضحكى في المكان حتى سمعته أذنى ... وقبل أن أتبين أن من الخيف أن يسمع الإنسان صوت نفسه تحقق الخاطر الذى سخرت منه ، فقد سمعت نقرا على الباب الخارجى للجناح الصغير المخصص لى ، وكانت تعليمات الممرض الذى قابلنى بطبيعة الناس ألا أفتح بابى إلا لمن أتأكد من شخصيته ، وكانت تعليماته بطبيعة الحال ساذجة مألوقة دفعه إليها التملق أو البساطة ، لكنها تركت في نفسى مخاوف لم تظهر إلا في اللحظة

الحاسمة ساعة سمعت نقرات على الباب .

وقررت ألا أرد . إننى مجهد وقادم من سفر وهذه أول ليلة لى ، وليس من المعقول أن يكون الطارق زائر جاء يؤنسنى ، فلذت بالصمت وأنا غير مرتاح الضمير ، وانقطعت الطرقات أو ربما غطى عليها حفيف الشجر . ولم يلبث كل شيء أن عاد إلى الهدوء ورجعت من جديد أحلق فى المكان كأننى أريد أن أعرف حدوده ، ووقف بصرى على الآية القرآنية التى أهدتها إلى أمى .. فقرأتها .. ثم ذكرتها .. ولم أدر لماذا خيل إلى أن الطارق جاء يستنجد لى من أجل أم .. أم قد أصابها أى شيء . ربما كانت فى ولادة عسرة ، أو تزحلق فسقطت من على السلم ، أو اشتعلت فى ثيابها النار ...

وقبل أن تتوقف خواطرى سمعت النقر فى هذه المرة على الشباك الواقع عند أطراف السرير ، فهتفت بحركة تلقائية سائلا :

— من ؟

فأجابنى صوت غليظ منخفض الدرجة عرفت فيه صوت الخفير ، وقال لى :

— هل يمكن يا دكتور أن تخرج الآن .. لأن ..

فقممت إلى النافذة ووقفت خلفها واستطعت أن أتبين كل ما يقول ، ولم ألبث أن أقنعت وبعد قليل خرجت إليه .

كان هناك رجلان بانتظارى يبدو على أحدهما أنه ابن الآخر . وكان الأب ضعيف البصر والابن شديد التحافة يبدو عليه الاضطراب ، وطمأننى الخفير بنظراته فقررت السير معهما ، ولما سألتهما عن المسافة قال الأب إنها قرية ،

ولم يكن هناك داع للمخاوف لأننى كنت أفتح أول صفحة فى معاملة الناس فى هذه القرية .

وسرنا على الطريق العام تحدثنا المباني يمينا وشمالا ، وينير لنا الطريق نوعا ما نصف قمر يلفه سحاب أبيض .

سار الابن أمامنا ، أما الأب فقد أمسك ييدى وسار إلى جوارى وجعل يتكلم :

قال :

— هل تعرف يا دكتور أن ابنى إبراهيم هذا هو وحيدى .. وأن زوجته المتعسرة فى الولادة بنت أخى ...

فقلت :

— تشرفنا ..

فاستطرد :

— لقد كانت زوجتى تلد بالطريقة التى يبض بها الدجاج ... بسهولة لا تشعر بها ، أما زوجة إبراهيم فهذه هى ثانى حادثة لها .

ثم خفض الأب صوته حتى لا يسمع ابنه أمامنا ، وقال :

— لقد مات ابنها الأول من عسر الولادة ، ونجت هى بفضل الله ...

ولم أرد عليه ، أحسست أننى سأجتاز الامتحان للمرة الأولى ، وأن مسؤولية تنتظرنى قد تكون أكبر من إمكانياتى وإمكانيات الريف . فقلت

للأب بعد صمت :

— ومن الذى أشرف على ولادتها أول مرة ؟ .

فأجاب بصوت مرتعش متردد :

— الدكتور ... الذى كان هنا . نعم ... إننى خائف .
فقلت له :

— خائف ؟ . مم تخاف ؟ إذا كان الله والطب فى صفك فلماذا تخاف ؟ .
ومرت فترة صمت كان ابنه يقطع الطريق أمامنا بسرعة قلقة ووقع أقدامه
مسموع على الطريق ، والأب يلهث من خلال كلماته ، فقلت بعد ذلك :
— أين الدار ؟
فقال :

— ها هي .. إننا قد وصلنا .



وهناك فى إحدى القاعات الشتوية رأيت شابة تعاني آلام الولادة وقد
رقدت على حصير ، وفى الحجرة مصباح هزيل النور ، وكل شىء فى المكان
يوحي بالفاقة . ولما فحصت الموقف أدركت أنها فى خطر ، فقد كانت
الوالدة أضعف من المعركة وجلست إلى جانبها أستعين بكل تجارى ومعلوماتى
وأبتل إلى الله بدعاء أصدق وأخلص من الذى يدعو به زوجها . وأخذ الزمن
يمر ولكننا لم نتقدم خطوة إلى الأمام . وأفقت على كلمة وجهتها إلى المرأة التى
تحمل المصباح وتقوم على خدمتنا حين قالت :

— والنبي يا دكتور ... إن قامت بالسلامة وجابت ولد لنسميه على اسمك .
وفى هذه اللحظة غمرنى العرق البارد الذى يغمر وجه الوالدة ، لأننى
تصورت أى سمعة غير كريمة ستملأ القرية إذا وقع المكروه ، وسألت القدر
فى سرى لماذا لم يتأخر حضورى ليلة واحدة .

لكن هذا السؤال لم يحل الموقف ، ورأيت أن الحالة محتاجة إلى قدرة



لقد كانت زوجتي تلد بسهولة ...

بالطريقة التي يبيض بها الدجاج ..

أعظم من قدرتي عبط علينا من السماء أو تأتي من طيب مختص . وكلما انفتح باب القاعة دخل إلى صوت الأب وهو يرتل القرآن بابتهاال وترنيم . ومضى على في هذا الموقف وقت لم أدر مداه دخل بعده زوج الفتاة بوجه شاحب ولسان متلعثم وقال لي :

— دكتور ... دكتور ... إن ناسا بانتظارك على باب الدار ..
فقلت له :

— ليس هناك ما هو أهم من هذا ... لن أخرج .
فقال والجزع يلون كلماته :

— لا .. يجب أن تخرج أنت لتقول لهم هذا الكلام بلسانك ... لا ... قل لهم أنت .. (اعمل معروف) .

عند ذلك علمت أن الأمر فوق مستوى طاقته وأعظم من خوفه على زوجته وجنيها ، فمسحت عرق بمنديلي وتوجهت نحو باب الدار ورائحة غريبة جديدة على قد ملأت رأسي .

وهناك أيضا رأيت رجلين يبدو على أحدهما الثراء ويبدو على الآخر أنه تابع له ، فقلت مستفهما وبسرعة :

— نعم ؟

فقال الشاب الثرى :

— إننى ابن العمدة .. ونحن نريدك الآن .. حالا .

فسأله برقة :

— حالا ؟ .. حالا حالا ؟ . أنت ترى أيها السيد أتنى مع سيدة تلد ...

وقد ... آه ..

وهمست في أذنه بما لو سمعه زوجها لخر مغشيا عليه . فحرك الشاب يده ورفع معصمه ورأيت في الظلام وهج ساعة معصمه الفسفورية ، وقال بقلق ورجاء لكن بلهجة لا تخلو من التعالي :

— إن أمي .. زوجة العمدة في حالة إغماء .. أرجوك .. إغماء شديد ..
وليس هناك .. آ ..

وقاطعته حتى لا يقول كلمة تسيء إلى الإنسانية، حتى لا يضع مريضا في كفة أرجح من مريض ، قاطعته قائلا :

— نعم ، أنا أعلم يا سيدي أنه ليس هناك طبيب غيري في القرية ولكن ...
فسارع قائلا :

— إن معنا سيارة ، هناك على الطريق العمومي ، ومن الممكن أن تعود
سريعا إلى هنا مرة أخرى ..

وعاد الشاب ينظر في قلق إلى ساعة معصمه والفسفور يلمع في الظلام .
وعندئذ لمع في رأسي خاطر ، فاستمهلته الشايبين ودخلت الدار ، فوجدت
الأب وابنه قد جلسا متلاصقين أمام الحجرة التي تلد فيها الزوجة —
متلاصقين في خوف كركاب سفينة تغوص . فهمست لهما قائلا :

— إنني سأعود بسرعة ..
لكنني سمعت كلمة الموافقة من خلال تنهيدة تمثل اليأس .



كانت المريضة الثانية ممددة في سرير ذي ستائر وعند أقدام السرير قعدت
جارتان . وفي الحجرة الفسيحة انتظم أثاث يدل على الرفاهية . وحين رأيت
المريضة عرفت أن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من حقنة تنشيط القلب فقد كانت

السيدة مفرطة السمنة ، لكتنى اختليت بالشاب بعد أن انتحيت به ناحية
وهمست له :

— هل تحب أملك ؟

فدمعت عيناه وحاول تحريك شفثيه فعجز ، ثم استجمع قواه وقال بعد أن
بحث عن ريقه :

— جدا .. وأريد أن ترى عروستى لأنها ستزف بعد أيام .

فابتسم قلبى ، وأمسكت كتفه بيدي وقلت له :

— لا تخف . سأهنيك فى ليلة الزفاف .. لكن .. هل تمنع أن تقدم شيئاً

فى سبيل شفاء أملك ؟ .. إننى أحب أمى أكثر منك .

فأخرج من جيبه حافظة النقود وقدمها إلى لآخذ ما أشاء ، فابتسمت
ودفعت يده برفق ، ونظرت فى الساعة فإذا هى منتصف الليل ، ثم حملت
فيه بنظرة المنتظر وقلت له :

— هل تمنع فى أن تهب الحياة لنفس بشرية يهب الله الحياة لأملك ؟

فقفر فمه مستغرباً ، وقال :

— لا أمانع .. ولكن كيف أمانع ؟ .

فقلت :

— إذن .. فاجعل الله عليك ديناً أن تنقل سيارتك هذه إلى مستشفى المدينة

تلك الوالدة التى تعاني فى الدار التى كنا فيها ..

فهز رأسه موافقاً ..

ولم تمض دقائق حتى كانت المريضة قد استردت وعيها من أول إغماء
لحقها ، ورأى الابن من خلال بسمتها له بسمه الدنيا وبسمه عروسه ،

وبعد قليل كانت سيارته تقطع الطريق بأربعة : أنا والسائق
والزوج والزوجة ... ووصلنا إلى المدينة بعد ساعة واحدة حيث استطعنا
هناك إنقاذ الشابة من ولادة خطيرة ..

كانت أشجار المركز الاجتماعي في الليلة الثانية تتر في الحديقة والملاعب ،
وكنت نائما وحدي أنظر إلى الآية القرآنية المعلقة على الحائط وأسترجع
حوادث الليلة الماضية ... لكن ... لم يكن قلبي في الليلة الثانية يحس
بالخوف .. فلم تترك السعادة فيه موصعا يسكنه الخوف .

بسم التقنيين

كنا نذاكر في حجرة واحدة : أنا ، وأخي . وكنت أتمنى لو أن لنا بيتا واسعا ليفرق الله بيني وبينه ولو في ساعات العمل ، فقد كان أكبر منى بثلاثة أعوام ، وأغزر منى حيوية وأقوى منى صحة .

وكنا نحن الإثنين على وشك أن نتم مرحلة التعليم الثانوى . وعلى الرغم من أنه يسبقنى بثلاث سنوات في الميلاد ، لم يكن يسبقنى في الدراسة إلا بسنة واحدة ، وقد حاول جاهداً وعمل حتى درجة الموت ألا تعثر رجله في امتحان ما فيقع ، فألحق به . وهنا تستوى السلحفاة والأرنب وتكون مصيبة .. أنا أكون معه في سنة واحدة ؟ وأنا لا أزال « حنة عيل » وهو رجل كامل الرجولة ، يعمل حسابه من يعرف اسمه ؟

هكذا كان يقول لى دائما ، وكنت أنزوى خائفاً منه وأبتهل إلى الله بحرارة أقوى وأنقى . وأعرق من حرارة دعائه ، ألا يعثر فيكبو فألحق به ، وإلا استحال عيشتى معه تماماً في بيت واحد . وإذا كانت حياتى معه تسير هكذا منغصة مبيلة وهو في وضع يرضاه منى ، فكيف إذن تكون لو وقفنا يوماً ما على سلم واحد ؟

على أننى — وإن كنت أحبه — فإننى كنت أراه مثل الإله الذى لا يرضى ، أو الصنم الذى لا يشبع من القرابين . بمجرد أن تقفل علينا حجرة المذاكرة كانت تستحيل إلى حجرة تعذيب ، فإذا ما فتحت كتابى لأبدأ العمل ابتدرنى بلكزة من كوعه قائلاً في صوت هامس :

— يا سلام .. مستعجل أوى .. يعنى ح تبقى أفلاطون أو أرشميدس أو شكسبير ، خليك ذوق والنبي وحس على دمك لما نتكلم شوية .
— حاضر .

أقولها بانكسار شديد ، وأنا لا بد كما يلبد الأرنب ، وكنت ميالا إلى الصفرة واسع العينين (أكتر) الشعر ، فحين يرى تضائلى وتسليمى وإنصاى الذى يظهر جليا أنه مطبوع بطابع القهر ، كان يقول :
— اعمل أرنب يا لثيم .. ولما بأه تشتكى لماأ أو بابا .. المهم .. اسمع .
وتظهر مزاياه الحية ، وحركته اللولية وروحه الخفيفة المتطايرة السريعة الانتشار كأنها النوشادر . وحالا .. تشغلنى خفة ظله عن ثقل معاملته ، فأسرع فى الإنصات لما يقول .



كان غلاما محبا للمتاعب ..
أقرب الطرق عنده هو الكثير الأوحال شتاء الساطع الشمس صيفا .
الحالى من القوانيس ليلا . عدو نفسه لا يحب الراحة . وكنا — مثلا — نرى
قبة مسجد السيدة من نافذة منزلنا فيقول عندما تقع عليها عيناه :
— لو أستطيع أن أجلس فوق هذه القبة مدليا ساقى إلى تحت ، دون أن
أترحل ؟

ومرة ونحن نلعب خطف عكاز شحاذ ضرير كان يتحسس به الطريق وهو
يتكفف الناس ، وطرح بالعكاز فى خرابة مقفلة الباب ، وحرم على أولاد
الحارة أن يقرودوا خطا الرجل ، ثم لكمه بين كتفيه وجرى ، فإذا الأعمى
يجرى وراءه فى الأزقة ، وأنساه حبه للإنتقام تصنعه العمى للتسول ، فضحك

أهل الحى من هذه الحادثة ولم يعودوا يرون الشحاذ بعد هذا اليوم .
مهمل خفيف الظل ، مجازف لا يخاف ، يحب بدينه ومستقبله وتقاليده
أهله ، ويختار فى الحب أوعر المسالك وأكثرها أوحالا ومتاعب ، شأنه فى
اختيار كل طريق .

— إسمع يا حسنى . أقسم بالله العظيم إذا ما عدلت عن كثرة الشكوى
لوالديك لأحرقن جميع كتبك وأتلفن عليك ستك وأجعلها سوداء . فأهم ؟
— حاضر .

وينسى . ويستأنف الحديث بوجه طلق فى شأن جديد كأنه إنسان
آخر :

— أتريد أن تعرف آخر أخبار البنت زنوبة بنت بياع السجائر الذى دكانه
على شريط الترام ؟ إن العلاقة بيننا تطورت كثيرا .
فأقول بمدارة :

— والله يا أخى أنا لا أعرفها .

— لئيم ... ومن الغريب أن لؤمك هذا يدخل على أمك وأبيك .. ألا تعرفها
حقا ؟ .. ذات العيون الخضراء .. البنت القصيرة ذات الصدر العجيب .
فأقول مغلوبا :

— آه .. تذكرتها . ما لها ؟

— أنت مستعجل ؟ . اطمئن ، سأشرح لك كل ما تحتاج إليه من
دروس ، فقط أنصت إلى خمس دقائق . دخلت وراءها حوش بيتهم الواسع
وقبلتها فى الظلام .

ثم يحكى ويحكى وأنا أكاد أحتقن من الغيظ .



ألا تعرفها حقاً ١٢ ذات العيون
الخضراء والصلبر العجيب ..

ورجوته ذات ليلة أن يعفو عني .
— اسمع يا أخى . أنت صحيح أكبر منى وأقوى وأعقل وأذكى بكثير .
لكن :.. أليس حراما أن يضيع بعضنا أوقات بعض ونحن على أبواب
الامتحان ؟

واستطردت أتلقه :

— أنت معتمد على ذكائك ، أما أنا فأنا إنسان غيرك ، أنا أطرق في حديد شبه
بارد ، فإذا فترت عن العمل ضاع مجهودى .
ثم برقت عيناى بالدموع ، لقد جربت قبل ذلك أن أجلس بعيدا عنه فى أى
مكان ، فأذاقنى عذابا روحيا شديدا طوال الطريق ونحن ذاهبان وعائدان من
المدرسة ، كبعض أنواع الحب ، أو (الكيوف) لا يقربه يكفى ولا بعده
يشفى ، شر على كل حال .

وكأنما أثرت فى آلامى هذه الليلة ، وفى اليوم التالى رأيت ونحن عائدان من
المدرسة مشتبكان فى عراق مع أحد أقارب زنوبة : فتى أقوى منه وأضخم
وأطول . ولم أكن سائرا مع أخى جنبا إلى جنب ، كان قد سبق بقليل فلما
أدركته وجدته مشتبكا فى عراق . كتبه مبهثرة ولكمة تحت إحدى عينيه ،
وغريمه مخرج فى دماثة من لكمة سددها أخى إلى أنفه . وكانت المصارعة
اليابانية آخر ما تعلمه هذا الأسبوع ، ولذلك استطاع أن يسقط هذا الفحل
على الأرض .

وتدخل أولاد الحلال وفصلوا بين الفريقين فى الوقت الذى حمدت فيه الله
على أننى وصلت بعد إعلان الهدنة .
وانزونا معا فى مكان بعيد عن البيت . واتفقنا على أن أسارع أنا عند

دخولى فأعلن الكذبة بالنيابة عنه فى الوقت الذى يكون هو فيه متأخرا فى صعود السلم ، وعلى منامع (ماما) ألقىت بطريقة آسفة :

— حادثة سخيفة يا ماما حدثت ونحن فى الطريق .. أثناء مرورنا فى شارع درب الجمايز الضيق كانت سيارة شحن محملة بحزم مضغوطة من قصاصات الورق ، وأثناء انحرافها مع أحد المنعطقات اختل توازن إحدى الحزم ... وسكت . وضمت شفتى فى حزم كما وصف لى الكذاب الكبير . وخبطت أسمى على صدرها صارخة :

— أين أخوك ؟

— لا تجزعى . لم يحدث شئ .

فصرخت :

— أين هو أولا ؟ قل لى .

— إنه يصعد السلم على مهل .

— هل أصيب ؟

— لا . ليس من بالة الورق بل من مؤخرة صندوق العربة ..

وهنا رأيناه مائلا على الكتبة بشكل درامى صابر صامت ، وبمنظر الرجل الذى وقعت عليه كارثة من السماء لا يد له فيها ، فاحتملها بجهد كما يفعل

المؤمنون !!

وعندما اطمأنت الأم إلى أن الله قد لطف فى قضائه ، أخذت تسب أناسا

مجهولين ، وتلعن حظه المهب ، وطريقه الملىء بالعترات .. دائما .

ولم يمض أسبوع على هذا الحادث حتى رأيته يميل فى حجرة المذاكرة

ويقول بعينه كلاما ، كانت عيناه عسليتين جذابتين غزيرتي الأهداب ،
تتعارك في مائهما الجاذبية مع اللثوم والإغراء . وابتسم صامتا .
فقلت لأعجل بإنهاء الموقف :

— بسرعة من فضلك ، لم يبق على امتحاني إلا أسبوعان وعلى امتحانك
شهر واحد . أنت في الثقافة هذا العام . لا تنس .
— لن أضيع وقتك ، هل علمت بحكاية البنت ؟
— زنوبة مرة أخرى ؟

فأجاب باستخفاف وهو يهز كتفيه :
— لا . زنوبة .. زنوبة إيه ؟ .. سيبك . المصريات لا يعرفن الحب .
فخفق قلبي ... وهتفت دون أن أشعر :
— يا نهار أسود ..

— هس . هس . لا تفضحنا .. ألا تسمع وقع خطوات أمك في الممر ؟
اعقل .

— هل سنختلف من جديد ؟ أنت عارف ؟
ولوح بالانتقام فبلعت ريقى وسألته بهوادة :
— قل أنت .

فأخرج من مخبأ صنعه في جلد أحد الكتب على هيئة جيب ، أخرج صورة
شمسية لفتاة ومعها خطاب مكتوب بلغة لم أستطع فهم عبارة منها .
ثم أخذ يسرد على ملخص القضية ..

إنه تعرف على فتاة بطريقة المراسلة ، إيطالية ، اسمها « ماريانا جيوفاني »
بمدينة جنوى ، وبواسطة أحد أبناء الطليان من معارف أصدقائه المقيمين في

شبرا يكتب ويترجم .

ثم أخرج من مخبأ في درجه كتيبا صغيرا يعلمه اللغة الإيطالية لكي يكتب بنفسه لهذه الفتاة التي أحبها بالتراسل .

قلت في نفسي : تلك مصيبة لا يقدر على تدبيرها إلا الله . الله ونحده .
وفي الأيام التالية ، كان يقول لي الكلمة بالعربي ثم بالإنجليزى ثم بالفرنساوى ثم بالإيطالى ، وأكتم أنفاسى وأكتم دموعى ، وسهر فى تكبير صورة الحسناء بالفحم وكتابة الرسائل الحارة ليترجمها له صديقه فى اللقاء التالى ، ومعنى نفسه بركوب الباخرة ليلقاها أو الطائرة ليصل إلى جنوى .
وأعلنت النتائج ، ونجحت أنا ، لكننى لم أفرح ، كنت بانتظار النتيجة الأخرى فهى التى ستحدد موقفى ولون أيامى وليالى فى العام القادم .. مصيبة إذا رسب ، نكون معا فى الثقافة ؟ الموت ولا هذا ..

لكن الذى حدث أنه رسب ... فى الدورين معا ... وأصبحنا تلميذين فى سنة دراسية واحدة .



وسارت الحياة أثناء الشهور الأولى من العام الجديد بطريقة لا ترضى أحدا . كثر الخلاف والمشاكسة ، وكنت أستحى أن أشكو لأمى أو أبى ، فلما ضاق ذرعى شكوت ، فإذا بكلمة تأنيب لم تكن متوقعة تخرج من فم الأم معناها أننى ابتدأت فى دلال المغرورين . أهذا لأن الحظ خان أخى ؟
وحرمت الشكوى على نفسى منذ هذه الليلة ، وسهر أخى يكتب بالعربى ليترجم بالإيطالى ، وتجددت علاقاته مع البنت زنوبة « كما كان يدعوها » حتى دخلت رجله إلى بيتها .

بطريقة نسائية جرت أمها رجله إلى البيت ، ومشيت الأمور في غموض شامل طول العام حتى أعلنت نتيجة (الثقافة) مرة أخرى ، فإذا بكارثة أكبر من العام الماضي تقع . أنجح أنا .. ويتخلف أخى الكبير .

كنت أحس أنه لابد أن يقع شيء ما .
لقد فكرت فيما فكر فيه أخى حسنى ، لكن دوافع الإقناع وقوة العزيمة عندي كانا أقل بكثير منها عند أخى . فكرت في أن أفر من البيت وأتركه له . لكن أخى بعد إعلان النتيجة لم يظهر له أثر ، وزعم أنى — ووافقته أمى أول الأمر — أن اختفاه هزة نفسية لنا يقوم بها الخبيث الخائب ليغطي آثار الخيبة ، لكن الأيام مرت أسبوعا وراء أسبوع وشهرا بعد شهر ، ولم يعد ...

كنت أنظر إلى أوراقه ورسائل حبه وكتبه وصورة الفحم للفتاة الإيطالية بعين دامعة طوال الشهور . حتى هممت أن أسأل عمن يكتب للفتاة خطابا في بلادها ويقول لها : لقد ضيعت شابا ، لكننى تذكرت أنه كان ضائعا من كل ناحية .

ثم بلغنا أن زنوبة هى التى مولت أخى حتى يهين نفسه عملا ثم يعود فيتزوج . ثم جاءنا خطاب من السويس بخطه يخبرنا أنا بخير ، وأنه في رغد من العيش ، ويرجوننا ألا نحزن فهو يهين نفسه مستقبلا .

وفي ذات مساء وبعد عامين وجدنا من يقف على بابنا في ملابس بيضاء مطرزة على هيئة زى رجال البحرية ، واكتشفنا أن الواقف هو أخى ، وأنه التحق بإحدى شركات البواخر .

كان يبدو تحت كبريائه أنه غير سعيد، ولكن كل شيء بالنسبة لمستقبله كان قد تحدد ، وعجيب أن حرارة العاطفة لم تكن عندي شديدة التأجج كأن البعد يدوس جمرات الحب بمحذاته الكبير . أو كأن العلاقات من الأشجار التي لا تستغنى عن السقى . وأقام عندنا أياما ورحل .

وسألته ونحن نودعه وكنت إذ ذاك طالبا في الجامعة :

— هل لا تزال تذكر زنوبة وماريانا ؟

فضحك وقال :

— ألم يتغير معظم ما كان بيني وبينكم ؟ كل شيء يتغير بفعل الزمن ، على أنني كنت يوما ما في (جنوى) ولم أفكر في الأمر ، وداعا .

ولم نعد نراه إلا بالقدر الذي يسمح به رسو البواخر . نعم .. وتزوجت زنوبة من شاب غير أخى ، ومزقت أختى الصغيرة صورة ماريانا المرسومة بالفحم ، وأحب أخى على طول تعرجات الشواطئ .

ولما قامت الحرب ، واضطربت الملاحة في البحر الأبيض اعتبرت السفينة التي أقلع عليها من السفن المفقودة .

ناس يعيشون على الأرض ، وناس يمرون عليها مجرد مرور ، كأنهم ظلال ، أو خيال .

الفهرست

صفحة

٥	شمعة على الطريق
١٢	الليلة الموعودة
٥١	الضفيرة السوداء
٦٢	عندما يعود
٧٥	عاطل بالوراثه
٨٥	الكنز
٩٣	الأشياء النفيسة
١٠٥	القربان
١١٥	الأم الرعوم
١٢٣	عودة النور
١٣١	هذه السعادة
١٤١	سفينة النجاة
١٥١	الليلة الأولى
١٦٣	ثم التقينا

مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

- لقيطة (ليلة غرام) : جائزة المجمع اللغوى لأحسن قصة ، جائزة وزارة الشئون لأحسن فيلم ، ترجمت إلى فارسية .
- بعد الغروب : قصة الفقير الموهوب يشق طريقه بالفأس فى الصحور . جائزة وزارة التربية والتعليم .
- شجرة اللباب : قصة عنراء أهدت قلبها لشاب متزدد شكاك . ترجمت إلى الإنجليزية .
- شمس الخريف : ماذا تأخذ منا الحياة ؟ وماذا تعطى ؟ جائزة الدولة فى الأدب .
- غصن الزيتون : لا تجعلنا نجب من لا يحبوننا حتى لا تشقينا بالحب مرتين يا إلهى . ترجم إلى الصينية .
- الماضى لا يعود : (مجموعة أقاصيص)
- من أجل ولدى : قصة الحب العائلى والمرأة فى صورها الأربع : أم ، زوجة ، وحيدة ، وعشيقة .
- ألوان من السعادة : (مجموعة أقاصيص)
- الوشاح الأبيض : قصة حب جميل . ولكن هل حققت الأيام مُنى المحبين ؟
- سكون العاطفة : (قصة طويلة)
- الضفيرة السوداء : (مجموعة أقاصيص)

- اللجنة العلراء : (مجموعة أقاصيص)
- أشياء للذكرى : (مجموعة أقاصيص)
- عيوب النور : (مجموعة أقاصيص)
- حافة الجريمة : (مجموعة أقاصيص)
- الباحث عن الحقيقة : (قصة طويلة)
- البيت الصامت : (قصة طويلة)
- أسطورة من كتاب الحب : (مجموعة أقاصيص)
- للزمن بقية : (قصة طويلة)
- النافذة الغربية : (مجموعة أقاصيص)
- جوليت فوق سطح القمر : (مجموعة أقاصيص)
- قصة لم تتم : (قصة طويلة)
- الذموع الخرساء : (مجموعة أقاصيص)
- لقاء بين جيلين : (لقاء المؤلف مع عمالقة القصة)
- الوجه الآخر : (كاتب القصة الناقد)
- غرام حائر : (أول قصة للمؤلف)
- حلم آخر الليل : (مجموعة أقاصيص)
- عودة الغريب

رقم الإيداع ٢٠٢١

الترقيم الدولي ٤ — ٢٠٤ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة



الشمس ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
معيد جودة السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com